التراث

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية
المجلد الثامن - العدد الثالث - 1399 - 1979

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين شيركوه

محمد مهدي البصير

١٨٩٦ - ١٩٧٤

بقلم الدكتور

منير بكر التكريتي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

نشأته

هو مهدي بن محمد بن عبدالحسين بن شهيب المشهور بالبصير . ولد في الحلة عام (١٨٩٦م) وتعهده ابوه ، ولما بلغ الخامسة من عمره اصيب بالجدري ففقد باصرتيه . ووهب نور العقل والقلب والوجدان . نشأ نشاة دينية فاستظهر القرآن الكريم ، ودرس علوم العربية والدين في الكتاتيب ، وكان من ابرز اساتذته واعظمهم اثرا في نفسه « السيد محمد القزويني » الذي درس عليه جانبا من الحديث والفقه ، لكن الذي نفعه اكثر من دراسة الحديث والفقه صحبته استاذه نحوا من ثلاثة اعوام ، اقتبس فيها الشيء الكثير من علمه وادبه ، وصفاته ، مما اعانه على المثابرة ونظم الشعر ؛ اذ نظم عدة قصائد وهو في الكتاب لما يتجاوز الرابعة عشرة . وكان يهدي تلك القصائد الى اخيه في الرضاعة السيد « علاء الدين القزويني » ومن الجدير بالذكر ان آل القزويني معروفون بالجاه والعلم وان اعراسهم ووفياتهم كانت بمثابة مواسم شعرية في الحلة والنجف ، فكثير من شعر الحبوبي وحيدر الحلي ومحمد رضا الشبيبي كان قد قيل فيها لذلك كانت لملازمة البصير افراد هذه العائلة ومصاحبته لهم الاثر الواضح في ثقافته(١) . وكان البصير منذ بدء حياته يقرأ المجلات والصحف العراقية والسورية والمصرية كالمقتطف والهلال والمرفان وكان لهذه اثرها في تكوين اتجاهه الجديد يقول « وربما كان لغشياني بعض الاندية الحديثة ذات الطابع العصري ايضا بعض الاثر ، فكنت شبخا وثيق الصلة بآل شبيب(٢) ، وهم متجددون ، وتفكيرهم عصري ، ولهذه الاتصالات كبير الاثر في حياتي الى ما قبل الحرب العالمية الاولى »(٣) . وقد اهلته اتصالاته هذه وملكته الادبية لنظم الشعر وهو فتى ، ويقال ان اول بيتين نظمهما في مستهل حياته الادبية قوله :

سلسال ثغرك يا رشا
لم يرو منه العاشقونا
وبريقك المعسول قل
يتنافس المتنافسونا

وكان منذ صباه مولعا بقراءة الشعر المتضمن

---

(١) يراجع في تفصيل آل القزويني كتاب « نهضة العراق الادبية » فصل آل قزوين لمؤلفه محمد مهدي البصير .

(٢) اسرة معروفة بالنجف من رجالها الشاعر جواد الشبيبي، ومحمد رضا الشبيبي .

(٣) جريدة النار البغدادية « ذكريات » العدد ١١١٣ سنة ١٩٦٥م .

WWW.ATTAWEEL.COM

آيات من القرآن الكريم ، لحفظه له وتأثره به وكان « محمد ضياء القزويني » يستمع له مشجعا(٤) .

ويحدثنا البصير عن ذلك قائلا : « كنت انظم في كل يوم قصيدة لتنشد في تلك المجالس الادبية التي تعقد ، ففي ذات ليلة اعطيتهم موشحة مطلعها :

رفّ لي شمس المدامة
تمر ابدى ابتسامه

وفي ليلة اخرى اعطيتهم موشحة اخرى هي قولي :

تعرضت لي على يبريني(٥)
نجل الظباء العين
تفتك في انفس الوعاظ
وحسنها فتنة المفتون

وفي ليلة ثالثة اعطيتهم موشحة منها :

بادر الى نادي الطرب
فاليوم قد زال الوصب

اما رابع المنظومات التي اعددتها لهذه المناسبة فمطلعها :

صال والجعد لواء مظفر
منه جيش الصبر مذ رفّ قد فر

واخرى جاء فيها :

جرت على الوادي ذيول سحائب
هطلت فسروت منه كل غليلي
وبمهجتي هيفاء مخطفة الحشا
انا في هواها لا اطيع عذولي

(٤) المصدر السابق .

(٥) يبرين ، مكان في شبه الجزيرة العربية ، معروف بكثرة الغزلان وقد كثر ذكره على السنة الشعراء ، قال ابن هانيء الاندلسي :

تراهن امثال الظباء عواطلا
لبسن بيبرين الربيع المنورا

راجع : تبيين المعاني في شرح ديوان ابي هانيء ص ٢٥٢ ، وقال احدهم :

ان كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطية على ربا يبرين !

وقال الشيخ حسين البصير احد شعراء الحلة في اوائل القرن العشرين :

يا ساحر اللحظات من يبرين
لتمى لماك من الفسنا يبريني

حسناء ناحلة الجفون وانما
يشتق من ذلك النحول نحولي(٦)

ونظم في صباه الشيء الكثير من الشعر العاطفي من ذلك قوله :

ولقد بكى لي مسقمي لما راى
كبدي تذوب صبابة وولوعا
مثلت لي نفسي بصورة انة
فاسال رحمته عليّ دموعا(٧)

وقد عني البصير بالسياسة في وقت مبكر من حياته فجمع بين الادب والسياسة ، لكنه لم ينتسب الى منظمة سياسية الا في سنة ١٩١٩ ، اذ تألفت في بغداد جمعية سياسية سرية اطلقت على نفسها اسم « حرس الاستقلال » . وطلب الى البصير ان يؤسس لها فرعا في الحلة ، فلبى الطلب ، واسس لها فرعا كان امين سره طوال وجوده في الحلة ، وفي ربيع سنة ١٩٢٠ ترك مسقط راسه « الحلة » الى بغداد للقيام بعمل ثوري اقتضته الظروف . وقد امضى الايام الاولى من اقامته في بغداد ضيفا على السيد « محمد الصدر »(٨) واتفق معه على تنفيذ الخطة التي قصد بغداد من اجلها ، وهي عقد اجتماعات ثورية تحت ستار الدين . يلقي فيها البصير ما ينبغي القاؤه من خطب سياسية وقصائد حماسية ، وقد قام بعمله يعلم الناس الوطنية في تلك الجوامع وعلى قوارع الطريق ويعبيء الضمير الوطني للمعركة الفاصلة مع الاستعمار . ولم يكن الثوار بادىء ذي بدء قادرين على الجهر بآرائهم الثورية خشية بطش السلطات الاستعمارية ، وانما كانوا يتخذون من هذه المناسبات علمية كانت ام دينية ميدانا لتسرب بعض الآراء الثورية والافكار التحررية(٩) . وهذا هو البصير يحدثنا بنفسه عن هذه الاجتماعات يقول : « كانت الاجتماعات تعقد في جوامع بغداد الكبرى وكان جامع « الحيدرخانة »(١٠) بمثابة المركز لهذه الاجتماعات فقد كنا نعقد فيه اجتماعا مساء كل يوم خميس على نحو منتظم ، وكانت هناك جوامع اخرى تعقد

(٦) جريدة المنار العدد « ١١١٢ » سنة ١٩٦٥ « ذكريات » .

(٧) تراجع جريدة الشعب العدد « ٤١١٥ » سنة ١٩٥٨م .

(٨) من رجال الدين والسياسة المعروفين في العراق ، ومن مشاهير ثورة العشرين .

(٩) تراجع مجلة الاقلام البغدادية « البصير شاعر الثورة العراقية » العدد العاشر ص ١٢٤ سنة ١٩٦٥ .

(١٠) من اهم جوامع بغداد الدينية ، يقع في شارع الرشيد .

فيها الاجتماعات ايضا ... وتلقى فيها الخطب والقصائد الوطنية »(١١) لاثارة الشعور الوطني ضد الانكليز ، وتعد اول قصيدة قالها شاعرنا في هذه الحملة قصيدته « باعث الغضب » التي انشدها مرتجلا في حفلة افتتاح « المدرسة الحسينية الاهلية » في التاسع عشر من آيار عام ١٩٢٠ منددا بالاستعمار ، طالبا الى الشعب اليقظة والحذر من الانكليز ومظالمهم ، مشيرا الهمم :

يا مطلع الازهرين العلم والادب
ردّي الينا رقي الشرق والعرب

* * *

يا صاحبي وهذي الضاد قد جمعت
ابناءها والعلا منهم على كثب
ايقدمون وهم احمى الرجال حمى
ام يحجمون وهذا اكبر العجب

وفيها يقول مشيرا الى الانكليز :

لالعبن لهم ادوار منتبه
حتى يفرق بين الجد واللعب
ولا حياة لنفس لا يحركها
الى الحماسة يوما باعث الغضب
لا حق للمرء في مجد يحاوله
ان شح بالنفس او ان ضنّ بالنشب(١٢)

ومن المعروف ان هذه الحفلة اقيمت ببغداد تحت ستار العلم . وقد تكاثرت هذه التظاهرات وشهدت جوامع بغداد ودور العلم في النجف الاشرف والكاظمية والاعظمية اجتماعات هيأت الراي العام وبلورت القيادة الوطنية وكان للبصير دور فعال في تهيئتها ، ولم تكن هذه الانتفاضات والخطب التي تقام في الجوامع والمدارس لتتاثر بالشاعر البصير وحده بل كان لغيره من الانشاد نصيب لا ينكر ، واستغل البصير الناحية الدينية استغلالا يدل على براعة وبعد نظر لالقاء الخطب السياسية والشعر الوطني متلوا بالمراسيم الدينية المتادة وقد فطنت السياسية الانكليزية المعروفة « المس بل » الى اثر هذه الاجتماعات والتظاهرات فاخذت تدعو الشبان الى شرب الشاي عندها واختارت ان تكون هذه الدعوة « ليلة الجمعة » لانها وقت الاجتماع . وقد اجاب الشبان دعوتها لاول مرة غير انها اعربت لهم عن رغبتها في حضورهم كل جمعة ففطنوا الى هذه اللعبة البارعة فقاطعوها . ورات السلطات المحتلة عظم تاثير هذه الاجتماعات فاصدرت بيانا جاء فيه « اعتاد بعض المفسدين ... ان يعقدوا المواليد في ليالي الجمعة ظاهرا لمقاصد دينية ولكن في الحقيقة لتهييج افكار الناس ضد الحكومة البريطانية ولبث روح الاختلاف ... وان الحرية الممنوحة قد اساءوا استعمالها وان المحركين يضلون العوام ضلالا مبينا بجسارتهم ومذاكراتهم في مجلس المولود فلهذا وجب ان نعلن ان انعقاد الاجتماعات تعرض القائمين بها لاشد العقوبات »(١٣) . لكن الاجتماعات استمرت ، والتظاهرات توالت حتى اليوم الثاني عشر من آب « اغسطس » عام ١٩٢٠م حيث وجد البصير نفسه مضطرا الى الاختفاء للانذار الذي انذر به المشرفون على هذه الاجتماعات ، فداهمت السلطات الحاكمة بيوت عدد من زملاء البصير ففر منهم من فر وقبض على نفر منهم ، وزجوا في السجون والمعتقلات ، لكن البصير عاد الى الظهور ثانية في غضون تشرين الاول « اكتوبر » من العام نفسه حينما قدم السير « برسي كوكس » مندوبا ساميا للعراق ، فتغيرت الاحوال نوعا ما وفي هذه الفترة قام بنشاط صحفي ملحوظ في جريدة الاستقلال التي كانت لسان حال الثورة ونشر فيها الشيء الكثير من نثره السياسي وشعره الوطني وكانت له جولات خطابية في بغداد ، ولعله كان المبرز بين اصحابه من الادباء ، وكانت المناسبات الوطنية هي التي الهمته كثيرا من الخطب البارعة والقصائد الحماسية .

وتسألني رايي فيما كتبه البصير بجريدة العرب ، ودار السلام اللتين اشرف عليهما الانكليز منذ « ١٩١٧ الى ١٩٢٠ » فاجيب عن ذلك :- ان محرري الجريدتين وكتابها كانوا من خيرة رجال العلم والادب في العراق منهم ، محمد رضا الشبيبي الشاعر الكاتب والسياسي الوطني المعروف ، والشاعر باقر الشبيبي والبصير وغيرهم ممن اغرتهم سلطات الاحتلال اول الامر بان الجريدتين وسيلة لبث الروح القومية وخدمة اللغة ، وتثقيف الشعب ، وقد اخبرني البصير ، الذي كان يوقع مقالاته باسم مستعار هو « ابن

(١١) جريدة المواطن العدد « ١٧٢ » سنة ١٩٦٨م .
(١٢) الديوان « البركان » للمترجم له ص ٤٢ سنة ١٩٥٧ .
(١٣) جريدة العراق عدد « ٦٢ » سنة ١٩٢٠م .

بابل » ، بان المفكرين العراقيين والسياسيين لم يكن عندهم شيء من الحذق وبعد النظر آنذاك في السياسة ، وهم حديثو العهد بها . بحيث ينظرون الى كل شيء بتحفظ وبعد نظر . ومن يتتبع اتجاه الفكر العراقي منذ الاحتلال العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني ، يجد الكتاب والشعراء لم يثبتوا في آرائهم السياسية ، فلتاثير العواطف العارضة يندفعون ببراءة لرأي ما ، وسرعان ما تكشفت الامور وتظهر الحقائق فيعزفون عن ذلك الراي ويناهضونه . والباحث يجد للشعراء والكتاب في العهد العثماني تأييدا منقطع النظير للدولة العثمانية حامية الدين ونقدا عنيفا لسياسة الانكليز اعداء المسلمين وهذا ما تزخر به جريدة صدى الاسلام المعبرة عن سياسة الدولة العثمانية وآرائها(١٤) .

ويجد للكتاب والشعراء انفسهم كذلك في عهد الاحتلال البريطاني مدحا للانكليز يكاد يصل الى الذروة مع التنديد بالمظالم العثمانية وطغيانها . ويجد كذلك في الوقت نفسه تحسرا مريرا على عهدهم(١٥) ، وما ان انكشفت النيات المبيتة ووضحت الغايات حتى نفض معظم الكتاب والشعراء ايديهم من صحف الاحتلال وانبروا يطالبون بعنف بحق اغتصب وحرية سلبت ووطن احتل ووقفوا في صفوف المجاهدين وكانوا طليعة شعراء الثورة وكتابها والمدبرين لها والمخططين لقيامها وبعد البصير من الرعيل الاول الذين بثوا مفاهيمها يقول :

ليحطم المستعبدون قيودهم
فالجور اياسهم من الاعتاق
ولسوف اكسر غل عنقي جاهدا
ان لا اسلمها الى الاطواق

ويقول :

انا يا رفاقي لا اريد سلامتي
فتذكروني ان هلكت رفاقي
وغلا الدم العربي في نواجبي
تضميخ مجدي بالدم المهراق(١٦)

لان من طبيعة الشعب العراقي ان لا ينصاع لحكم جائر ، اذ هو شعب يعشق الحرية ، ويقدس الوطن ، ويفديه بروحه ودمه واذن كان البصير معذورا في كتاباته في جريدتي دار السلام والعرب ولست هنا في معرض الدفاع عن الرجل ولكني احسب من الوفاء والانصاف لثورة العشرين ولشهدائها ان نعطي صورة واضحة امينة لاولئك الذين خططوا لها وافنوا زهرة شبابهم من اجلها ووضعوا اسسها في افئدة الجماهير وعقولها ، ولم يحنثوا بيمين الولاء لهذا الوطن ولم يمدوا يد السلم لدهاقنة الاحتلال ، لقد سجل البصير هو واخوانه المجاهدون دورا قياديا مهما في تعبئة الفكر العراقي لاعطائه الاتجاه التاريخي الطبيعي وهو اتجاه تحرري مناهض للاستعمار .

مضى صاحبنا ثائرا مع الشعب المتحفز منادبا بالاستقلال للوطن محرضا على الثورة داعيا القوم الى حمل السلاح والذود عن شرف الوطن وكرامته ، وقد اله ان يرى قوى الاحتلال تمطر المتظاهرين بوابل من رصاصها في الخامس والعشرين من آيار عام ١٩٢٠ اذ نهض في اجتماع عقد بمدرسة التفيض الاهلية ، مرتجلا ابياتا على لسان مجاهدي بغداد يستنهض بها همم احرار اواسط الفرات جعلها « صرخة من دار السلام » .

غضبنا فقمنا ثائرين لغاية
تهون المنافي دونها والمشانق
ورددت الاجواء قصف زئيرنا
فردت عليه بالدوي البنادق
فهل تنطق الزوراء وهي اسيرة
وتسكت عما تبتغيه المناطق(١٧)

وقد استدعى البصير في اليوم التالي للمظاهرة مع ثلاثة من رفاقه الى مكتب الحاكم العسكري وهنا يحدثنا عن مقابلتهم له : « قال لنا انه يعتبرنا مسؤولين عن حوادث الليلة الماضية وانه على استعداد لاتخاذ تدابير صارمة ضدنا » « فاجبناه بما يناسب المقام »(١٨) .

بقي الشاعر الخطيب ثائرا يقتنص المناسبات ليصب على جماجم الغاصبين جام غضبه وآلام امته . ومقتنصا المناسبات للتعبير عن ذلك ومن هذا ان اتفق في الثلاثين من ايار عام ١٩٢٠ اقامة

---

(١٤) لتفصيل ذلك ، تراجع الصحافة العراقية واتجاهاتها فصل « جريدة صدى الاسلام » للدكتور منير بكر التكريتي .

(١٥) يراجع المصدر السابق فصل « القصيدة في الاتجاه الوطني والسياسي » ص ٢٢٦ : ٢٤٤ .

(١٦) البركان ص ٤٨ .

(١٧) المصدر السابق ص ٥٤ .

(١٨) نفس المصدر ص ٤٦ .

حفلة كبرى في « المدرسة الجعفرية » لتوزيع الجوائز على المتفوقين من طلابها فنهض البصير مطلقا صيحته المدوية بقصيدته « يا علم » التي اعتبرها الوطنيون في حينها جوابا على تهديدات حاكم بغداد العسكري . وكان مطلعها :

يا علم عش واعش نعصرك راتي
واعد شموس الشرق للاشراق(١٩)

وزادت شراسة المحتل فنكلت بالوطنيين ونفت الكثير منهم مما ادى الى الاستياء العام واشعال نيران ثورة « ١٩٢٠ » في الثلاثين من حزيران « يونيو » ضد قوى الاحتلال ناقضة العهود . ناكثة الوعود فكنت ترى البصير يواكب الثورة ويجمع الوطنيين حول رايتها صارخا في القوم الى الجهاد داعيا الابطال الى خوض المعارك واسترخاص الفداء ضد الاستعمار ، مرددا :

ان ضاق يا وطني عليّ فضاكا
فلتتسع بي للامام خطاكا
بك همت بل بالموت دونك في الوغى
روحي فداك متى اكون فداكا(٢٠)

وينطلق الشعب الثائر والبصير يشد العزائم ويلهب النفوس الى رصّ الصفوف ضد قوى المستعمر الغاشم :

ايضام شعب بالعمل
جمّ المآثر والمناقب
صعب الشكيمة صادق
بجهاده سامي المواهب(٢١)

ويواكب شاعرنا الثورة ويحث الجماهير للانضواء تحت رايتها . غير ان قوة جيوش المحتلين وكيده كانا اقوى من ارادة الشعب الاعزل فتنهار عزائم وتضعف بعض النفوس وتخور كثير من الدمم ويفيق الشعب ويفيق معه البصير فاذا بالثورة تجهض ، فيعتصر الالم القلوب وتبكي حظها ويبكي البصير معها لما اصاب الثورة من اخفاق ، ويندب الوطن المحتل ممزيا نفسه بالصبر الجميل :ـ

بكيت لما انتاب البلاد فراعها
من الثكل لما فات احرارها النصر
فكفكف دموعا لست ممن يزيلها
لتطفىء اشجانا يضيق بها الصدر
وعد بجميل الصبر انك اهله
فما لك في شكوى تبوح بها عذر(٢٢)

وظل البصير مكافحا بعد فشل الثورة ونفى عدة مرات غير انه استمر يستانف نشاطه السياسي في الاحزاب السرية فكان عضوا في اللجنة التنفيذية لحزب سياسي سري اسس في ذلك الوقت سمي بـ (الحزب الوطني العراقي) وفي الثاني من آب « اغسطس » سنة ١٩٢٢م منح هذا الحزب اجازة رسمية غير ان الحزب حلّ بعد مدة قصيرة(٢٣) وطورد اعضاؤه ونفى عدد من زعمائه بينهم البصير الى (هنجام)(٢٤) .

وفي الحادي عشر من آذار « مارس » عام ١٩٢٣م سمح للبصير ولجماعته المنفيين بالعودة الى العراق فلما وصلوا الى البصرة منع البصير من السفر الى بغداد ووضع تحت مراقبة الشرطة الى اواخر حزيران « يونيه » من العام نفسه اذ سمح له بالعودة الى بغداد وكان آخر من عاد اليها من اخوانه المنفيين . ولم يستانف نشاطه السياسي في هذه الفترة ولم يقل شعرا او خطبا في المحافل او غيرها وانما انصرف الى التاليف وسبب هذا ما يحدثنا به البصير في محاورة طريفة جرت بينه وبين الملك فيصل في اجتماع سياسي لمناقشة تصريحات تشرشل وزير المستعمرات البريطاني التي اطلقها آنذاك هي ان « ملك العراق وشعبه يرحبان بالانتداب البريطاني » .

يقول البصير : « ... اجتمعنا به ـ الملك ـ فلما حضرنا عنده التفت اليّ قبل ان نخوض في الحديث وقال لي : يا بصير اظنك تعرف ان الشعر شيء والسياسة شيء آخر .

فقلت له : لقد كنت اظن انني اخدم العراق بشعري خدمة صادقة ولكن ما دمتم تقولون مثل هذا فاني ساترك الشعر من هذه اللحظة .

---

(١٩) كانت هذه القصيدة من بين المستمسكات التي ابرزها الحاكم البريطاني عام ١٩٢١ حين القي القبض على الشاعر وحكم عليه بالحبس لمدة سنتين وبغرامة خمسة وعشرين جنيها استرلينيا لكن الاستئناف اسقط الغرامة وجعل مدة الحبس سنة واحدة وفي الثامن من تموز « يوليو » من نفس العام افرج عن الشاعر بكفالة نقدية على ان يبقى تحت رقابة البوليس سنة كاملة .

(٢٠) و (٢١) جريدة صوت الاحرار العدد (١١٢٤) سنة ١٩٦٢ « البصير الشاعر » .

(٢٢) جريدة البلد البغدادية العدد « ٦٦٢ » سنة ١٩٦٦م .

(٢٣) حل في السادس والعشرين من الشهر نفسه .

(٢٤) احدى جزر الخليج العربي الثانية .

فقال لي : انني لم اقل ولا يمكن ان اقول اترك الشعر ، ولكني اقول ان الشعر يقوم على الخيال والعاطفة وما اشبه ذلك ، والسياسة تقوم على حقائق الحياة العملية وما اليها ، وانت تعرف ذلك كل المعرفة .

فقلت له : « فضي الامر فلن انشد الشعر بعد اليوم » وهكذا لم ينظم قصيدة منذ ذلك التاريخ حتى بعث الحزب الوطني العراقي في عام ١٩٢٨م »(٢٥) وقد انصرف كالبنا الى طريق آخر يخدم به امته هو التاليف والتدريس . وفي عام ١٩٢٥ عين استاذا لاصول الفقه الجعفري في جامعة « آل البيت » ولكنه استعفى من هذا المنصب بعد مدة قصيرة ثم عين استاذا للادب العربي في الجامعة نفسها ومحاضرا في ثانوية بغداد المركزية ودار المعلمين الابتدائية في نفس الموضوع، لكن نوري السعيد الغى هذه الجامعة بحجة ضيق الميزانية العراقية(٢٦) ، عندها طلب البصير منحه اجازة لاصدار جريدة سياسية لكنه عدل عن رايه . كان البصير عضوا في الحزب الوطني العراقي الذي حلّ في اثناء قيامه بالتدريس ولكنه بعث من جديد في صيف عام ١٩٢٨م فكان عضو لجنته التاسيسية التنفيذية كما كان من قبل .

وفي هذا يحدثنا البصير قائلا : « وكنت من مؤسسيه وقررنا ان نحتفل بافتتاحه فطلب الي الزملاء ان اسهم في هذه الحفلة فاخبرتهم بامتناعي عن قول الشعر منذ مواجهتي للملك فيصل(٢٧) ، فقالوا هذه حكاية قديمة وقد الزمت نفسك فيما لا يلزم ، لكني انشدت قصيدة بعنوان « عهود ام قيود » مطلعها :

كم قطعنا باسم العراق عهودا
لم تكن في يديه الا قيودا

وقد شرحت فيها سياسة الحزب شرحا وافيا ... »(٢٨) لكنه عاد وترك السياسة نهائيا في ربيع سنة ١٩٢٠ فكانت علاقته بالشعب بعد هذا التاريخ علاقة ثانوية(٢٩) حيث اوفد الى مصر للقيام بدراسات علمية ، فمكث فيها سنة دراسية كاملة ، ابحر بعدها الى فرنسا حيث قام بدراسات علمية وادبية لكللت باحرازه « دبلوم الدراسات الفرنسية » من جامعة « مونبليه » في شهر شباط « فبراير » من عام ١٩٣٣ فاجازة (الدكتوراه) بدرجة الشرف في الادب الفرنسي في السابع عشر من كانون الاول « ديسمبر » عام ١٩٣٧ من الجامعة نفسها ، ولك ان تعجب بهذه السفرة العلمية وهو المثقل بالهموم والاحزان ، والاتعاب التي انهكت جسمه من جراء الثورة ولقد كنت ادري ان البصير لقي من الجهاد وغصص التشريد والنفي والسجن بسبب الثورة ؛ ما اثقل كاهله ، وانقض ظهره بل لقد كنت اعجب حقا كيف استطاع بعد ان خاض غمار هذه الأهوال كلها ان يخوض غمار اهوال اخرى ، فيشد رحاله الى فرنسا ويمرك لغتها وادبها ، ويتزود منها ما يفتح دونه آفاقا رحبة في نهجه ومنهجه الذي التزمه بتدريس الادب العربي بدار المعلمين العالية بعد عودته من فرنسا عام ١٩٣٨م . وقد احتفظ بهذا المنصب الى عام ١٩٥٩م حيث احيل الى المعاش لاكماله الثالثة والستين من العمر فانقطع الى التاليف والمطالعة ، يزوره رواد الادب وعشاق المعرفة ليستفيدوا من آرائه في معضلات الادب حتى وافته المنية في التاسع عشر من ايلول عام ١٩٧٤م . رحم الله البصير فقد خدم العراق ووافانا بشيء لا نكران فيه من الثورة العراقية وصحب من طلائع الثورة ورجالها جمعا كثيرا مما يستحق العناية والدرس.

(٢٥) جريدة البلد العدد « ٦٦٣ » سنة ١٩٦٦ « ذكريات من ثورة العشرين » .
(٢٦) لتفصيل ذلك تراجع جريدة النار العدد « ١١١٣ » سنة ١٩٦٥ « ذكريات » .
(٢٧) انظر مناقشة البصير مع الملك فيصل .
(٢٨) و (٢٩) جريدة البلد العدد « ٦٦٣ » « ذكريات » .

٢

مؤلفاته

عنى البصير بأدبنا العربي قديمه وحديثه عناية قلما اتيحت لغيره ، ونتاجه الغزير الذي قدمه لنا خير دليل على اهمية مؤلفاته فنفع فيها اجيالا وستنتفع بها اجيال ، يعتمدها الاستاذ ويستفيد منها المتتبع وينتفع بها الطالب(٣٠) فهي ثمرة جهوده وعصارة افكاره . وهذه المؤلفات تناولت بالبحث جوانب كثيرة من عصور الادب واعلامه وها هي :

١ ـ تاريخ القضية العراقية : ويقع في جزئين سرد فيه وقائع تاريخ العراق واحداثه وما رافقه من ملابسات وما عانى من ظلم واجحاف منذ الاحتلال وحتى الاستقلال

(٣٠) راجع علي جواد الطاهر « مجلة الاديب » عدد نيسان سنة ١٩٦٧ .

وقد سار فيه سير المؤرخ النزيه والناقد الجريء .

٢ ـ الشذرات .

٣ ـ المختصر .

وهما مجموعتان شعريتان نشرهما قبل نفيه الى هنجام من قبل سلطات الاحتلال .

٤ ـ النفثات : مجموعة مقالات ادبية واجتماعية وسياسية .

٥ ـ دولة الدخلاء ، رواية اجتماعية ذات طابع تاريخي .

٦ ـ شعر « كورني » الغنائي بالفرنسية وقد ترجمه الى العربية .

٧ ـ بعث الشعر الجاهلي : دراسة وتحليل للمعلقات السبع مبينا مزاياها ومثبتا نسبتها لاصحابها . وقد الفه للرد على المستشرقين الذين انكروا الشعر الجاهلي ، وعلى الدكتور طه حسين عندما اصدر كتابه « الشعر الجاهلي » الذي يرى فيه ان المعلقات منتحلة وان اكثر شعرائها وهميون .

ويعتبر « بعث الشعر الجاهلي » من اهم كتب البصير واخطرها لما تضمنه من آراء جريئة صريحة جديرة باهتمام المتتبع للادب الجاهلي .

٨ ـ عصر القرآن : دراسة ادبية موسعة تبدا بقيام الدعوة الاسلامية حتى زوال دولة بني امية في الشام . والبصير في دراسته لادب هذا العصر يثبت آراءه الاصيلة التي اقامها على طول تامل المادة والنزاهة في البحث لذا جمع هذا الكتاب بين دفتيه مادة ممحصة ونصوصا مختارة اضافة الى ما يزخر به من آراء مخلصة تدل دلالة واضحة على نهج البصير في البحث والتنقيب .

٩ ـ في الادب العباسي : جمع فيه المؤلف بين كتاب هذا العصر وشعرائه واحكامه عليهم ويعد من المراجع المهمة لادب هذا العصر .

١٠ـ الموشح في الاندلس وفي الشرق :ـ دراسة شاملة للموشح مع عرض مختارات منه قصد المؤلف بدراسته هذه نشر الدعوة للموشح والعمل على النهوض به وترقيته رغبة في ان يحل محل القصيدة القائمة على اساس القافية الموحدة(٣١) .

(٣١) تراجع مجلة الاديب عدد نيسان سنة ١٩٦٧ .

١١ـ نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر : اضاف البصير بكتابه هذا الى الخزانة العربية دراسة واعية شاملة لسد الفراغ الكبير في تاريخ العراق الادبي الحديث ، والمؤلف عنى عناية بالشعر العراقي المعاصر، قد تكون فريدة ، ولا نعرف بين اساتذتنا من تهيأ له ان يستوعب نتاج الشعراء الذين عرفهم او عاصرهم كالبصير . وحسبك ان تعرف ان هذا المؤلف حفل بالشعراء الشعبيين وجمع مجموعة نادرة وعجيبة من اخبارهم وسيرهم(٣٢) .

والملاحظ في بحوث البصير ومؤلفاته انها تنصب على دراسة اخطر الاعلام في الشعر والنثر. وخطته المألوفة انه يقسم البحث قسمين ، حياته، وشعره وقد يلحق بحياته ما يراه مناسبا من اخلاق الشاعر او مذهبه . اما في الشعر : فيدرس الاغراض ثم اللغة والاسلوب ولا يخلو بحث له من خاتمة ذكية موجزة تلخص آراءه فيه او تعليق على قول مهم في الحكم عليه(٣٣) .

حقا ان عقل البصير مستودع نادر للشعر العربي عامة والعراقي خاصة استوعب كل ذلك بشتى الوانه ومختلف عصوره وبذلك قدم كاتبنا للعراق وللادب خدمة لا تنسى .

٣

مقالاته

امضى البصير في حياته رحلة شاقة ، بقلب واسع وصوت لم ينقطع مترنما بالناشيد الوطنية والاخلاق في نبرات تنبض بكل معاني الصمود والايمان معالجا مختلف الموضوعات فشخصية الرجل متعددة الجوانب متسمة الانتاج اذ هو كاتب وخطيب الى جانب كونه شاعرا . عرفته محافل الحلة وبغداد كاتبا ، يثير حماسة الجماهير للثورة على المحتلين الانكليز ، ولقد عركته المحن فخرج منها بحكمة الرجل الواعي المتمعن الذي حمل القلم يقارع الخصم ويطلق الراي الجريء لا يتراجع امام الساخطين ، يجوب الاسواق ويرتاد المحافل ليعلم الناس الوطنية والدفاع من تربة

(٣٢) تراجع جريدة الجمهورية العراقية « ناصر الحاني » رجلا عرفت عدد ٧٨ سنة ١٩٦٧ .

(٣٣) للتوسع في هذا الباب تراجع مجلة الاديب البيروتية عدد نيسان سنة ١٩٦٧ .

الوطن حفظا لمآثر الاباء والاجداد وحرصا على القومية والدين . عرف الرجل مخلصا في القضايا الوطنية والقومية تشهد له بذلك مقالاته وخطبه التي تحدث بها الى الناس في اوقات متباينة وفي شؤون متنوعة وطرق مختلفة في امور السياسة والاجتماع والاداب .

اما السياسة ، فقد استهوته وعمل في مجالاتها منذ مطلع عام ١٩١٩ منخرطا في الجمعيات السرية ؛ كحرس الاستقلال ، والحزب الوطني وغيرها اذ كانت طبيعةالجهاد تتطلب تنظيم الجهود، وتكتيل القوى كما تتطلب تهيئة النفوس وشحذ الهمم[٢٤] . وكان للبصير دوره التاريخي في كل هذا اظهر جرائه ودأبه واخلاصه وكان يزن الامور بموازينها والرجال بمآثرهم واخلاصهم يقول :

« الزهرة زهرة بما لها من جمال المنظر وطيب النفس ، والشمس شمس بما تفيض من نور وحرارة ، والرجل رجل بما له من جلائل الآثار »[٣٥] . وكانت السلطات المحتلة تخشى كل ما يقول وتتعقب كل رأى قاله لكنه لم يأبه لانذاراتها بل كان يصبح فيها بمثل قوله : « من حسن حظ البلاد المفتوحة سوء ظنها بالفاتح وان عدل . لأن هذا اذا عدل ففي ما لا يناقض مصلحته الاستعمارية التي في حد ذاتها ظلم فاحش ... وحسب خائن الوطن ان يستصغره قومه ولا يستكبره خصمه .. اننا اذا نظرنا الى الخائن نظرنا الى المخلص ، واسرعنا في توجيه التهم الى الاخير دون ما مبرر ، قلّ عدد امثالنا في بلادنا »[٣٦] ... فالاستعمار ، كما يرى البصير ، عمران للأرض في معناه الاصلي وخراب للنفوس في واقعه العملي ، لذا نراه يقول : « ما ابلغ صرخة المظلوم من فم المدفع »[٣٧] . وكانت هذه الكلمة تهمة ادانت البصير امام المحكمة الانكليزية التي حاكمته في مطلع عام ١٩٢١ واعتبرت الكلمة تحريضا على الثورة غير انه ظل بمقالاته يذكي حماسة الشعب اذا القى كلمة او انشد قصيدة ، فكان بحق ثورة في الثورة لقى تمجيدا وعانى غياهب السجون يقول :

« كثيرا ما يطنطن رجال الاستعمار بخدمة يؤدونها لشعب غلبوه على امره ، فليت شعري أيريد هؤلاء ان يسلبوا الناس حريتهم وكرامتهم وخيرات بلادهم »[٣٨] ودفع هذا القول احد الساسة الانكليز الى ان يصرح للبصير ذات يوم لما رأى من عناده في الرأى وصرامته ، في محاربتهم « الا تظن اننا اعطيناكم كل ما تطلبون »[٣٩] لكن البصير رد بحزم وشجاعة متناهية : « لقد اخذنا بعض حقوقنا منكم وسنأخذ ما بقى منها عندكم ؛ ان عاجلا او آجلا »[٤٠] . وللبصير مع الاستعمار حديث طويل اودعه مقالاته ؛ فيه الاستهزاء اللاذع والشجاعة النادرة والنكتة المستملحه التي تستوجب الضحك والاشفاق يقول : من مضحكات عصرنا ان الدول الاستعمارية التي باتت لا تستغني عن المعونة في امر الدفاع عن نفسها تستجدي المعونة ايضا لتواصل سحق اقدس مبادىء الانسانية الحاضرة في المستعمرات مع انه من الخير لمن عجز عن الظلم ان يؤيد العدل »[٤١] . و « يخيل الى بعض الدول المعاصرة انها تستطيع ان تنشىء من سياستها حديقة حيوان تجمع بين الذئب ، والحمل والظبي والاسد . واخشى الا يكون في مقدورها ذلك » اما الزعامة ودهاقنة السياسة فقد اوسمهم نقدا لاذعا وتهكما مريرا فالزعامة في الامم الراقية كما يرى تقوم على رعاية المصالح وفي الامم المتخلفة على ارضاء العواطف ... والبصير يقرر ان الزعامة الحقة تقوم على الكفاءة والاخلاص فالزعيم الحق هو الذي يخلق الظرف اللازم لتقرير زعامته لا الذي تخلقه الظروف لتملأ به مركزا لا يوجد من يملؤه »[٤٢] . والزعيم الاصيل لابد من توافر صفات فيه تؤهله لتلك الزعامة : « لابد لكل زعيم قوم من اربع ، اخلاص لقضيتهم ، وقدرة على تدبير شؤونهم ؛ وتضحية في سبيل مصلحتهم ، وسيرة صالحة منسجمة تبعث على الاحترام والتقدير »[٤٣] . و « تقوم الزعامة على معالجة الحقائق بحزم ومهارة ولكن الخيال ، والخيال الخصب من خصائص الزعيم الحق »[٤٤] . حقا ان شعبا لا زعيم له ؛ لأسرة ليس لها اب . اما الزعماء الذين يتملقون الشعب ويترضون ميوله فكاتبنا اعتبرهم من اعدى اعدائه

---

(٢٤) راجع جريدة الجمهورية العراقية العدد (١٨٥) سنة ١٩٦٤ .

(٣٥) البصير ـ خطرات ـ (ص ٥٧) بغداد سنة ١٩٥٢ .

(٣٦) محمد مهدي البصير « خطرات » ط ١ ص ٩ سنة ١٩٥٢ .

(٣٧) نفس المصدر ص ١١ .

(٣٨) نفس المصدر ص ١١ .

(٣٩) و (٤٠) نفس المصدر .

(٤١) المصدر السابق ص ١٤ .

(٤٢) نفس المصدر ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٤٣) و (٤٤) « خطرات » ص ٢٢ ـ ٢٣ .

ومن اشد الناس خطرا على الشعب لانهم يترضون ميوله اية كانت ويتملقون اهواءه سعيا وراء مآربهم الخاصة حتى انهم يسمون فساده صلاحا وضلاله رشادا « ان هؤلاء في زعمي اعدى لـه من الـد اعدائـه »(٤٥) فاذا « كان لزعمائنا عذر عمـ يرتكبون من اغلاط لها اعمق الاثـر في حياتنـا ومصالحنا وتاريخنا فهـو صدورهم عن نيـات متشابهة واغراض متماثلة »(٤٦) .

وصاحبنا يعيب على انـاسـة الانقيـاد والخضوع والاستخذاء لدولة اجنبية وفي رايه ان نصل الى غاياتنا بعد جهاد طويل شاق خير من ان نصل اليها عن طريق الخضوع لدولة اجنبية زمنا محدودا او غير محدود اذا كان هذا موصلا الى غاية سامية لان بلدا يفتح ابوابه لدولة اجنبيـة رجاء ان تصلح من شانه لكمن يؤوى في بيته شيطانا يستنزل به بركة من السماء . وبعد كل هـذه الامور ترى البصير قلقا على مستقبل العـراق وعلى ابنائه ، للنزعة الفرديـة والانانيـة التي استاصلت في نفوس القوم فهو وجل ومضطرب على مستقبل الوطن وما ينتظره في غـده : « يقلقني على مستقبل العراق القريب والبعيد انني لم اعد احس شعلة المثل العليا تتاجج في صدور ابنائه . لقد كان ابسط فرد في مجتمعنا قبل سنين ماضية يفكر قوميا على اتم وجه وبأوسع معنى ، وكان على استعداد لبذل ماله واراقة دمه في سبيـل تحقيق هـذه الفكرة متى دعت الحاجـة الى ذلك(٤٧) . لقد انقلبت هذه الفكرة الكلية الشاملة فردية ضيقة واستحالت تلك الغيرة السامية انانية جامحة ، لذا خاطب البصير قومه بقولـه : « ان علينا جميعا ان نقف في سبيل هذا الطوفان الجارف الذي يجتاح قلوبنا ونفوسنا وعقولنا في حواضرنا وبوادينا اذا كنا لا نريد ان يتعرض كياننا القومي للانهيار »(٤٨) . يتبين مما قدمناه ان الوطنيـة عند البصير ليست مجرد مسؤوليـة اخلاقيـة ينبغي للزعيم وللمواطن ان ينهض باعبائها ، وهي ليست واجبا اجتماعيا يؤديه المواطنون لانهـم يحبون بعضهم مع بعض وتلزمهم ضرورات التكافل الاجتماعي بالدفاع عن رقعة الارض التي تمدهم بخيراتها ونعمها ، بل الوطنية فوق كل ذلك نوع من التعبد والفناء في المحبوب .

وطني والحـق يؤيـده
مـا زلت بقلبي اعضـده
اهـواه ولـولا مبدعـه
لجهـرت باني اعبـده(٤٩)

وتتدافع العواطف الكامنة في اعماقه ويتفاعل احساسه في ضميره حتى يصبح ضربا من التوهج الروحي ؛ فيهب صارخا من سـوء الاوضـاع واضطراب الامور ويطالب ملحا بايجاد السـبل الكفيلـة باصـلاح الحال حرصا على الوطـن والمواطنين . والاصلاح « يقوم على ثلاث قواعد ، هي : الاخلاص ، والكفاية الادبيـة والماديـة ، والاستقرار »(٥٠) .

والبصير يؤمن بان وجود نابغة قوى مخلص في دست الحكم هو الوسيلة الفذة لاصلاح ما فسد من امور الناس في كل زمـان وفي كل مكان واذا نهض عظماء الرجال باعباء الحكم لم يقصروا عنايتهم على انجاز الاعمال والمشروعات ، بل انهم يتخطون ذلك الى البحث عن الكفايات الممتازة وتشجيعها بشتى الطرق وتمكينها من اداء رسالتها في ميدان الخدمة العامة . و « الحكومة دماغ المجتمع المفكر اذا صلحت صلح معها كل شيء واذا فسدت فسد معها كل شيء »(٥١) . والبصير يعتقـد ان بين الشعب والاصلاح « ثلاثة عوائق : لا ادري كيف نتغلب عليهـا هي : جهلنـا بالامور ، فجبننـا عن الاخـذ بمـا نعلم ، فمصالحنـا الذاتيـة لها منطقها الخاص ، وحكمها النافـذ في قلب الاوضاع وتغيير حقائق الاشياء ومع ذلك لا اريد ان ايأس »(٥٢) ويجزم بان الانانيـة هي الداء العضال في هذا الاصلاح ، وما دامت الانانية قادرة على الحيلولة بين ذوي المواهب الحسنة وبين خدمة الوطن فلا امل في الاصلاح ، وليست الكثرة من ابناء الشعب عاجزة عن التفكير في الاصلاح فحسب بل انها عاجزة عن قبوله والاخذ به ، ما لم يفرض عليها فرضا ولذلك فانه « اي اصلاح رهن بمشيئة الهيئات الحاكمة وعلى ما عندها من اخلاص وكفاية يتوقف تشريعه وتنفيذه »(٥٣) .

والبصير يلقى تبعة المسؤولية في الفسـاد

(٤٥) نفس المصدر ص ٢٣ .
(٤٦) نفس المصدر ص ٢٤ .
(٤٧) المصدر السابق ص ٢٨ .
(٤٨) خطرات ص ٢٨ .
(٤٩) جريدة صوت الاحرار العدد « ١١٢٤ » سنة ١٩٦٢ .
(٥٠) خطرات ص ٢٨ .
(٥١) نفس المصدر ص ٤٣ .
(٥٢) المصدر السابق .
(٥٣) المصدر نفسه .

والافساد في الامور على من منح ثقته لبعض اولئك الساسة لأن من عجائب اخلاقنا اننا نمنح بعض الساسة عطفنا وثقتنا وبذلك نساعدهم على تولي الحكم ، حتى اذا تولوه اسأنا الظن بهم اساءة شديدة ، وان لم يفعلوا ما يستوجب ذلك .

كما انه من ناحية ثانية يلوم الساسة في عملهم بقوله « من مصلحة كبار الساسة ان يغيروا زملاءهم في الحكم من حين لآخر ، اذا كان هذا مستطاعا : ذلك لان المظاهر الحسنة التي تقتضيها الدعاية تزول بعد رسوخ الاقدام في عالم الحكم ، وتحل محلها الحقائق التي تسوء الراي العام وتخنقه »(٥٤) . وقد شغلت احداث العراق بال البصير فكان تقلبه نشات هنا وهناك تقطر دما وتفيض بالحيوية والصراحة مهيبا بالراي العام العراقي ان يكون يقظا حازما رشيدا عارفا بمصلحته محبا لها غيورا عليها خبيرا بالرجال الذين يوليهم اعتماده ويمنحهم ثقته : « ان للراي العام ان يراقب ويحاسب ما في ذلك شك ، ولكن عليه ان يفكر ويناقش بحياد ونزاهة . وما في هذا شك ايضا . واني لأطلب الى ولاة الامور من على هذا المنبر ان يكونوا اكثر احتراما للراي العام منهم في اي وقت مضى ولكني اطلب الى الراي العام في نفس الوقت ان يلعب دوره بمهارة ويؤدي مهمته بأناة واستقامة ، اطلب اليه ان يعرف مصلحته معرفة جيدة وان يضعها فوق كل شيء »(٥٥) .

وله مقال سماه « الاستقلال أو الموت » يستهله ببيت من الشعر الحماسي منتقلا الى ذكر سقوط بغداد على يد الانكليز ، شارحا بيان القائد الانكليزي الفاتح « مود »(٥٦) ، مبينا مآسي الساسة العراقيين وآرائهم المتباينة في الاحتلال والاستقلال :ـ

لم يخطب السيف حتى اخرس القلم
فالكلم اجدى لنا نفعا أم الكلم ؟(٥٧)

(٥٤) المصدر السابق ص ٥٢ .
(٥٥) جريدة العراق العدد « ٥٨٢١ » سنة ١٩٤١ .
(٥٦) قال مود في بيانه المشهور « جئنا محررين لا فاتحين » لكن الايام فيما بعد اظهرت زيف هذا البيان وكذبه .
(٥٧) براجع البركان .

... اتدرون كيف حاول انسابة الابرار الاوفياء ان يغسروا استعادة العرب في العراق ما كان لهم من استقلال وحضارة ومكانة ؟ اتدرون ماذا كان يريد اولئك الساسة ان يعتبروه مغزى لانشاء الحكومات الوطنية ... انهم ارادوا ان ينعموا على العراقيين بانشاء مجلس بلدي في كل لواء يراسه الحاكم السياسي البريطاني .. » اظن القارىء يشعر في هذا المقال بنوع من التهديد والوعيد وتبكيت للمسؤولين فيما فرطوا في حقوق الوطن والوطنيين . وبعد هذا نجد الكاتب يسخر ويتهكم من المادة القانونية التي استند اليها واضعها في صلب القانون »(٥٨) .

وهكذا ينتقل البصير الى ذكر ثورة عام ١٩٢٠ واسباب اشتعالها ، تلك الثورة التي فتحت السبيل الى تغيير مجرى السياسة آنذاك وكيف تكدست الجماجم على ضفاف دجلة والفرات تلك التي استطاعت ان تكوّن سدا راسخا متينا يحول بين العراق وبين طوفان تلك السياسة « ان ثورة العشرين وحدها هي التي ربات بالعراق عن ان يكون مستعمرة خانعة تسودها ادارة انكليزية هندية ويعامل سكانا معاملة الانعام .. ». ويختتم مقاله بتمجيد « ٢٠ حزيران » ـ يونيو ـ اليوم التاريخي المشهود الذي فتح سجل الحياة العراقية الحديثة وقد كتب في فاتحته بقلم من « الفولاذ ومداد من الدم تلك الكلمة التي ظلت شعارنا الى ان نال العراق حظه من الاستقلال كاملا غير منقوص وهي « الاستقلال او الموت »(٥٩).

اما الوطن العربي : فله نصيبه الأكبر من قلم البصير الذي صبّه على اعداء الوطن من مدبري المكائد ومفرقي صفوفه والقضاء على وحدته وغيرهم ممن ساءه تواكلهم وتخاذلهم مما أدى الى تباين الاهواء وتنازع الشهوات وفساد الحكام . ان سياسة « اللعب على الحبلين » مسؤولة مباشرة او بالواسطة عن كل ما حل بكم من النكبات وحاق بكم من الاخطار على اني لا اريد ان امعن في البحث عن هذه السياسة وعما ارتكبت من اخطاء وسببت من ويلات ولا اريد كذلك ان امعن في البحث عن الاشخاص الذين رسموا خططها ونفذوها بدقة واحكام(١٠) .

هذه الالمامة بسياسة اللعب على الحبلين

(٥٨) لتفصيل ذلك القانون يراجع البصير « سوانح » ج ١ ص ٧ بغداد سنة ١٩٦٧ .
(٥٩) البصير ، سوانح ، ج ١ ص ٥ ـ ٩ .

التي قدمهـــا البصير دلت على استفحـــال الداء وتغلغله في جسم الوطن ، وانتهاك حرمته والبصير يقدم الدواء الذي يأمل في فضائه على الداء يقول : « ان نضغط على عواطفنا حتى نسكتها ، ان لـم نتبذها في ميدان السياسة نبذا تاما . وان نفسح المجـــال للمنطق ليصلح ما ارتكبت من اغلاط . ويتلافى ما استزمنت من شـــرور وآلام .. وان نفرق بين مصالحنا الخاصة ، ومصالحنا العامة تفريقا تاما لانه ما من امة ادمجت مصالح افرادها بمصالحها العامـــة الا وندمت على ذلك اشـــد الندم .. »(٦١) .

فكانت نتيجة ذلك استعمار الوطن العـــربي وتباعد حـــدوده واستقرار الاقليميـــة . وليس غريبا على البصير ان ينـــادي مع المنادين بتحقيـــق الاتحاد العربي على اسس علمية مدروسة وواقعية لان وحدة العرب سياسيا كانت حلما لذيذا من احلام الحرب الكونية الماضية الا ان المسلم المؤقت الذي تلا تلك الحرب قضى على ذلك الحلم قضاء مبرما فنشأت الدول العربية المختلفـــة ، وكانت مشكلات ليست من مصلحة العرب في شيء « ولكني اريد ان اقول - ان الظروف قد هيأت لنا فرصـــة اخرى تمكننا من بعث هذا الحلم الجميل من مرقده والعمل على جعله حقيقة ملموسة هذه الوحـــدة من شانها ان تؤدي الى تنظيم صفوفنا وتوحيـــد جهودنا والسير ببلادنا الى الاستقلال ، وما علينـــا - والحالة هذه - الا ان نبادر الى انتهاز هـــذه الفرصة والعمل بجد واخلاص على تحقيق اكبـــر امل واعظم امنية »(٦٢) .

والبصير يطلب من الشعب والراي العـــام العراقي ان يكون منتبها الى الدسائس والاراجيف التي تذاع ، وان ينبذها نبذ النواة ، وان ينصـــر من ينصر عن بينة . ويخـــذل من يخـــذل عن بيّنة ، والحكومة في كل هذا مسؤولة امامـــه . وليس من شك كذلك في ان الشعب مسؤول امام الله والضمير والتاريخ . انبرى البصير في معالجة كل شان يخص الوطن العربي وتحريره . من ذلك مسألة سوريا ولبنان حيث الاعتداءات التي قـــام بها القائد الفرنسي « جيرو » على لبنان الشقيـــق فعطل دستوره واعتقل رئيس جمهوريتـــه ورئيس وزرائه وبعض نوابه ؛ كما انه اعتـــدى على سوريا ولبنان معا بانزاله في اراضيهما دون استئذان منهما وحدات من جيشه الذي لم يمسح غبار الهزيمـــة بعد عن وجهه ، وان يصرح على رؤوس الاشهـــاد بانه انتهـــك حرمـــة استقلالهما لانهما قطران ضعيفان .

وبعد هذا يمضي الكاتب مخاطبا جامعة الدول العربية ويقول : « ... يجب على جامعـــة الدول العربية ان تقف من فرنســـا وقفـــة حازمـــة لان الفرنسيين يريدون ان يكونـــوا ســـادة السوريين واللبنانيين في عقر دارهم . بينما يريد السوريون واللبنانيون ان يكونوا سادة انفسهم »(٦٣) .

اما قضية فلسطين :- فقـــد آلمته وانبرى يكتب المقالات عن مواقف اعداء العرب تجاهها لا سيما موقف الرئيس « ترومان » من تاييده للقضية الصهيونية التي لا ترتكز على حق ولا تستند الى انصاف . قضية قوامها الادعاء الفـــارغ والزعم الباطل سندها المال والمال فقط . « يقول الرئيس ترومان وغيره من اصدقاء الصهاينة . ان اليهـــود معذبون مظلومون معرضون للاضطهاد في كل حين .. ولنفرض جدلا ان اليهود لا يزالون عرضة للاضطهاد والتعذيب في مختلف اقطار الارض ، انظلم عـــرب فلسطين لننصف شعب الله المختار »(٦٤) .

اما آراؤه في الناس واخلاقهم :-

فله حكم وامثال اجتماعية ، ومقالات كثـــيرة اودعها كتابه الموسوم بـ « خطرات » وتكاد تكون خطراته صورة واضحـــة الملامح لتلك البيئـــة الاجتماعية التي منها استوحى اهواءها وميولهـــا واتجاهاتها . والبصير في مجال الاخلاق ينعي على القـــوم تكالبهم على المـــادة وتهافتهم على اللذة وتهالكهم في سبيل المصلحة الخاصة مما ادى الى ازمة خلقية ضـــاق بها المصلحون واكثروا من الشكوى في امرها وانكروا على الناس انكبابهم على اللذة ، وتراميهم على المادة وبعدهم عن الامانـــة وتفانيهم في سبيل المصلحة الخاصـــة . ويلتفت البصير الى هذه الازمات الخلقية باحثا عن السبب ليجد لها الحلول الناجعة يقول : « لنبحث عـــن السبب الذي نشأت عنه هذه الازمة ؟ فانها لـــم تنشأ فجاة ومن غير سبب .. ان المجتمع الحاضر يعيش على خلتين اثنتين ، ويجري في حياته على مبدأين متناقضين ، يصطنع احدهما في الاقـــوال وهـــو افضلهما ، وثانيهما في الاعمـــال وهـــو

(٦٠) و (٦١) سوانح مقال بعنوان في « اقل من عشرين سنة » ص ١٢٦ .

(٦٢) هذا المقال جواب على سؤال لجريدة الزمان البغدادية في سنة ١٩٤٢ ، وقد نشر في سوانح ، ص ١٦٨ .

(٦٣) مجلة عالم الغد العدد « ١٤ » سنة ١٩٤٥ .

(٦٤) نفس المصدر العدد « ١٩ » سنة ١٩٤٥ .

احسنها »(٦٥) . والكاتب يوجه نقداته اللاذعة باسلوب ساخر الى اولئك الذين اتخذوا من الوعظ والارشاد اداة لتقويم ما اعوج من سلوك الناس ، ولا يعملون بشيء مما يقولون ، ينهون نهارا ويعملون ليلا ؛ ما ينهون عنه ، يذيعون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم : « ان الذين يعظون الناس ويرشدونهم في كل فرع من فروع الحياة الادبية والمادية ولا يعملون شيئا مما يقولون فهم لا يفعون تحت حصر . اننا ننصح بالاخلاق الفاضلة »(٦٦) .

يقف البصير ازاء تلك النصائح والارشادات التي يذيعها الوعاظ في الناس معللا سبب عزوف الشعب عن هذه المبادىء التي تذاع عليه صباح مساء كذبا ورياء بانها في حقيقتها اشراك واحابيل ؛ ويلتفت البصير التفاتة بارعة الى ذوي النزاهة والنيات السليمة ، ليعقد مقارنة بين اولئك وهؤلاء ليؤثر في القارىء عند معرفته الاضداد قائلا :

« الذين احتفظوا بنزاهتهم يعتقدون انهم من الضعف بمكان بحيث لا يمكنهم ان يصدوا هذا الطوفان الجارف . والواقع اننا سنخسر كل شيء اذا لم تؤد هذه الفئة الصالحة واجبها على اتم وجه في ارشاد الناس وحملهم على الاقلاع عن غوايتهم والرجوع الى سواء السبيل ..»(٦٧) ويمعن الكاتب النظر في آراء الناس بعضهم في بعض فيجد قسما منهم يرى الذكاء بلية على اصحابه ، حرمهم من الجاه والرخاء والمراكز الحساسة ؛ وان كل هذه الامور وقف على الاغبياء من الناس ، وانه اذا نجحت طائفة صغيرة من الاذكياء ـ على رايهم ـ الى جانب ملايين الاغبياء ؛ التي تتمتع بالفوز في كل ناحية من نواحي الحياة فانما ذلك شذوذ .

يقف البصير من هذه الآراء موقف المتامل المتفحص ويقلب الفكرة من جميع جوانبها ليدلي برايه في مقاله : « وهل الذكاء حجر عثرة في سبيل الفوز ، يقول :

« للفكرة موضع تاييد الادباء والشعراء منذ زمن بعيد : فابو تمام يقول منذ اكثر من احد عشر قرنا :

ينال الفتى من دهره وهو جاهل
ويكدى الفتى من دهره وهو عالم

وابن المعتز يقول :

كن جاهلا او فتجاهل تفز
للجهل في ذا الدهر جاه عريض

والشريف الرضي يقول :

بالجد لا بالمساعي يبلغ الشرف
تمشي الجدود بأقوام وان وقفوا

ومهيار يقول :

ابدا تبصر حظا ناقصا
حيثما ابصرت فضلا رجحا

والشيخ كاظم الازري يقول :

ولا الحظوظ لما ابصرت ذا بله
يجنى النضار وشهم القوم يحتطب

واخيرا يقول الزهاوي :

انا لو كنت غبيا
فاز في الامهم سهمي
انما اخرني اليوم
عن الاقران فهمي

ولنات الى هؤلاء الشعراء اكانوا في الحقيقة بؤساء تعساء ؟ اكان ابو تمام رجلا محروما كما يقول ؟ انم يرتفع بذكائه وادبه في منزلة تلميذ خامل الى مركز صديق لمحمد بن عبدالملك الزيات واحمد ابن ابي داود ومحمد بن يوسف الثغري . الم يكن هؤلاء العظماء وغيرهم يغدقون عليه العطاء اغداقا ؟(٦٨) . والبصير يكثر من الادلة الادبية المستقاة من بطون الكتب وهي تدل على استحضار الذهن والاتيان بالادلة والشواهد مفندا اقوال اولئك الشعراء ، ثم يعلل الكاتب هذه الشكوى الاجتماعية المريرة المرددة على الالسن باخفاق استعمال الذكاء مما يكون سبب الفشل في الحياة. والذكاء في حقيقته سبب من اسباب الفوز والنجاح »(٦٩) .

وللبصير حكم وتأملات في شؤون الحياة وطباع الناس يطلقها حين يؤلمه وضع او يعجب بعمل فيستجمع افكاره ويحدد الهدف ليضع الحسن او القبح امام قارئه فيفرح لفرحه ويحزن لحزنه . عندما يتحدث عن غرور الافراد وحسدهم الذي ينسيهم نفوسهم ويحول بينهم وبين الاعجاب

(٦٥) مجلة المعلم الجديد البغدادية الجزء الثالث سنة ١٩٤٦م .
(٦٦) المصدر نفسه .
(٦٧) المصدر السابق .
(٦٨) مجلة عالم الغد العدد الرابع سنة ١٩٤٦ .
(٦٩) خطرات ص ٦٠ ـ ٦١ .

بغيرهم . يرى انه في كل فرد من افراد الجنس البشري ، وكل شعب من شعوبه من الغرور والحسد ما يحول بينه وبين الاعجاب بغيره . لذلك فان على كل فرد وكل شعب ان يطلب الكمال للكمال ، لا للظفر باعجاب الاخرين « على ان هذا لو وجد جاز ان يكون غاية لانسان سديد الراي ، على كل انسان يطمح الى الكمال او الى تحديد نقائصه على الاقل ان يدرس نفسه ويفحص اقواله واعماله من حين لآخر ، انه ان يفعل ذلك بداد وحزم يرتفع في سلم الفضيلة بعض الشيء والا فنقائصه باقية كما هي ، بل انها في ازدياد مستمر مبعثه الرضا عن النفس والعجز عن مقاومة النعادة »(٧٠) . هذه النظرات استقاها كاتبنا من خبرته الطويلة للناس وتأملاته لتصرفاتهم وتجاربه التي هدته الى التعرف على حقيقتهم في اوقات متباينة وبلدان مختلفة ، تشابهت صفاتهم كما تشابهت اصواتهم . يقول : « ... ان العيون والوجوه نوافذ تطل على النفس الا ان تجربة حدثت لي اظهرت ان الصوت طريق آخر الى النفس فقد عرفت في بغداد ودمشق والقاهرة اشخاصا تشابهت صفاتهم كما تشابهت اصواتهم الى درجة تستدعي الانتباه »(٧١) . ويلقي الكاتب تبعة انحطاط جيله اولا على رضاه عن نفسه بحيث ادى الامر الى ان كل واحد لا يتصور ان في تفكيره او اخلاقه نقصا يجب تلافيه ولذلك تمر القرون دون ان يطرأ على الحياة اي تغير ملموس .

وثانيا : على الوراثة والبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ويقول : « لسنا مسؤولين عن كل عيوبنا ولا عن اكثرها ، فان للوراثة والبيئة الطبيعية والتربية ... وشؤون المعيشة والعشرة في نفس كل منا اثارا تصعب ازالتها صعوبة تامة »(٧٢) لان بعض الناس سعوا وراء منافعهم الذاتية وتسابقوا فيما بينهم على بلوغ اقصى غاياتهم في ميدان الشهوة واللذة الفردية . وبعض الناس يعتقدون ان الحياة يجب ان تكون دائما ذات بروق خاطفة وان على الرجل ان يبذل اقصى طاقته في ميدان العمل كما يبلغ اقصى طاقته في ميدان الشهوة واللذة « ان الحياة يجب ان تكون سراجا دائم الانارة ، ثابت الشعلة لا برقا يخبو حينا ويخطف الابصار حينا آخر ، وان على الرجل الا ينفق سوى القدر المعقول من طاقته في ميدان العمل . وانه يجب ان يكون اكثر اعتدالا واشد احتفاظا بطاقته في ميدان الشهوة واللذة »(٧٣) .

ويكفي الرجل انه اهدى مقالاته وخطراته هذه الى شركائه في المبادىء والافكار . ولعل من الخير ان نختتم مقالاته الاجتماعية بحكمته القائلة :

دار الصديق اذا تبدل وده
حتى كان السود لم يتبدل
لتكف غدرته وتحفظ عنده
مطوي سرك في الزمان الاول(٧٤)

وقصيدته بعنوان « ايها الدينار » تصور تكالب الناس على المادة :

قال :

ايها الدينار يا قبلة آمال الانام
هب لهم ما يتمنون شرابا وطعام
لا يغرنك قيل القوم انا .....
فهم غير هواهم ابدا لا يعبدون
ولشيء غير تحقيق الغنى لا يعملون
عبدوا المال تعالى الله عما يشركون

اما اراؤه في الادب والادباء ، والشعر والشعراء :

فالقارىء لا محالة سيعجب به اديبا وناقدا ؛ اجتمع له من النتاج الشيء الكثير ومن ادق ما يسمه ذاكرة جمعت واوعت ، وان كل ما جمعت طوع لسانه ، حفاظة لا يستذكر حدثا حتى ياتيك بنوادر كثيرة تخصه ، وتضلعا في الشعر واخباره وبديهة سريعة ونكتة حاضرة .

كان الشعر الجاهلي اول ما عرك البصير ، وكل قصاراه ان يتعقب آراء الدكتور طه حسين عنه ، لان الضجة التي اثارها حول الشعر الجاهلي في العقد الثالث من القرن ما برحت تشغل الادب والادباء . تعمد البصير ان يسلك سبيل المعارضين للدكتور طه حسين . وان يقيم الدليل على نقض كثير من آرائه وحججه سواء فيما يخص الادب الجاهلي ام غيره . فاذا كان قوام راي الدكتور طه حسين يدور على انتحال الشعر الجاهلي ؛ فان عماد الراي عند البصير يقوم على بعث هذا الشعر:

(٧٠) المصدر السابق .
(٧١) المصدر السابق ص ٦٢ .
(٧٢) المصدر السابق ص ٦٤ .
(٧٣) المصدر السابق ص ٨٤ .
(٧٤) ادهم الجندي « اعلام الادب » ص ٢١٦ .

وابراز الحجج التي تؤيد اصالته(٧٥) مفندا قول من قال من المستشرقين وغيرهم بانتحالها وان شعراءها وهميون ، وهو اذ يقف هذا الموقف لا ينفي وقوع الاختلاق والاكاذيب يقول : ان هذا الافتعال يدعونا الى الاناة والتثبت فيما ننقض ونبرم من قضايا التاريخ ، لا الى الجمود المطلق ولا الى الانكار بحق وبغير حق »(٧٦) واكثر البصير في الرد على الدكتور طه حسين عندما اصدر كتابه « في الادب الجاهلي » واخذ يدلل في كتابه « بعث الشعر الجاهلي سنة ١٩٢٩ » على اثباته ولا سيما المعلقات السبع ، ومن اهم ادلته قوله : « ان اكبر سلاح يستعمله منكرو الشعر الجاهلي للطعن في المعلقات : هو القول بان حمادا الراوية المعروف بالكذاب اول من جمعها ودونها في سفر ، ولست أريد ان اناقش في فساد ذمة حماد ، ولكني اقول : انه اعجز بكثير من ان يقول المعلقات السبع او واحدة منها او جزءا تاما من اجزاء احداهن ، ان حمادا يستطيع ان يقول ابيات او الابيات القليلة من الشعر المبتذل وان يدسها في شعر احد الجاهليين ليدل بذلك على انه اغزر علما واصدق رواية من غيره من الرواة ، ولكنه لا يستطيع ان يقول قصيدة واحدة ذات شخصية ادبية وقيمة فنية »(٧٧) . ان نهج البصير هذا اثار في مثقفي العراق فضولا دفع بهم الى اتهام كل ما كتبه طه حسين اتهاما(٧٨) .

ومما هو جدير بالذكر ان كاتبنا يجمع في ذهنه الاشباه والنظائر ، يناقش ويتامل ، ويقلب ما سمع على وجوهه متانيا متريثا ، وهو في تامله الطويل يسبر غور ما بين يديه من روايات فاذا بدا في رواية ضعف تركها ، واذا احس بكذب فضحه ، واذا شام تناقضا دل عليه حتى نيبدو في مناقشة اخبار الماضيين منطقيا ، انه يشك في القدامى وفيما رووا ، اذ الاختلاق واضح في غير قليل مما وصل الينا مع ما ثبت ، ولكنه لا يشك للشك ، ولم يتخذ هذا المذهب عفوا او تقليدا . ومن هنا فان البصير حينما قرر الانتحال في بعض قصائد الشعر الجاهلي صحح عيون اشعاره وغرر قصائده ولعله امعن في الشك اكثر من سواه ، لكنه لم يقف من العصر الجاهلي وحده هذا الموقف وانما مضى يشك فيما يقرا من اخبار العصور المختلفة الاسلامية والاموية والعباسية ؛ وقد اداه الشك الى نتائج جديرة بالملاحظة ، في الاخبار والرواة والشعر والنثر(٧٩) . ونراه عندما يدرس امرا القيس لا يعتمد في دراسته على شعره كما فعل الدكتور طه حسين وانما يعتمد على التاريخ الذي يوضح : ان امرا القيس سليل اسرة كندية يمانية سكنت نجدا وحكمتها نحوا من مئة سنة ؛ كما تقرر المصادر التي روى عنها مؤرخو العرب . والبصير لا يقطع ان هذه المصادر معصومة من الزلل ، لكنه يقول ان شعر امرىء القيس لا ينفي شيئا ولا يثبت شيئا في لغته او نشأته او نسبه او تاريخ اسرته .. وان مؤرخي العرب لم يستدلوا بشعره يوما ما على شيء من كل ذلك ، وقد لا اخطىء اذا قلت « ان الاستاذ طه حسين اول من قال ان القدماء او انصارهم « يثبتون لغة امرىء القيس بشعره » وقد يكون آخر من فعل »(٨٠) .

ويستطرد الكاتب في حججه مع مؤلف كتاب في الادب الجاهلي الذي قرر ان لغة قريش اخذت تسود في اواسط القرن السادس للميلاد شبه الجزيرة العربية وامرؤ القيس من ابناء ذلك العهد ، ويقول البصير « فليس بين وفاته وولادة النبي محمد « صلى الله عليه وسلم » سوى ربع قرن تقريبا اذن « فليست هناك مسالة شديدة التعقيد بالنسبة لشعر امرىء القيس مصدرها الشك في انتشار لغة قريش بنجد على عهد هذا الشاعر »(٨١) . وبذلك يثبت البصير ان قصيدة « قفا نبك » جاهلية ومن نظم الشاعر نفسه . مشيرا الى راي الدكتور طه حسين يقول : « اود ان اشير الى راي زميلنا الدكتور طه حسين في هذه القصيدة ، لانه على جانب كبير من الظرف والفكاهة ذلك ان « قفا نبك » عنده منتحلة في مجموعها !! ولكنه يعتقد انها من نظم جماعة من الرواة والشعراء »(٨٢) . والبصير يرى ان جاهلية « قفا نبك » ونسبتها الى امرىء القيس امران يؤيدهما الدليل الملموس ويقررهما المنطق الذي لا غبار عليه . ثم ينتقل كاتبنا الى شخصية امرىء

---

(٧٥) انظر : جريدة الجمهورية العراقية « ناصر الحاني رجالا عرفت » العدد ٧٨ سنة ١٩٦٧ .
(٧٦) بعث الشعر الجاهلي ص ١٨ بغداد سنة ١٩٢٩ .
(٧٧) المصدر السابق ص ٩٢ – ٩٣ .
(٧٨) تراجع جريدة الجمهورية العراقية « رجالا عرفت » لناصر الحاني العدد ٧٨ سنة ١٩٦٧ .
(٧٩) لتفصيل ذلك تراجع « مجلة الاديب البيروتية » ج ٤ سنة ١٩٦٨ « مؤلفات البصير » بقلم علي جواد الطاهر .
(٨٠) بعث الشعر الجاهلي ص ١٢ .
(٨١) المصدر السابق .
(٨٢) نفس المصدر ص ١٤ – ١٨ .

القيس ويقرر وجودها وهو في هذا يناهض راي الدكتور طه حسين يقول : « يشبّه الدكتور طه حسين امرأ القيس « بهوميروس » لاعتقاده ان كلا الشاعرين شخصية خرافية ، وينتهي من هذه المقارنة الى نبذ كل ما يروى عن امرىء القيس من الشعر على انه منحول !! ولكن هذا غير صحيح ، لان الفرق بين « هوميروس » و « امرىء القيس » عظيم جدا فنحن نجهل نسب هوميروس واسرته جهلا تاما ، ولا ندري اين ولد ولا نعلم ، ونو على وجه التقريب ، تاريخ ولادته ، ولكنا نعرف نسب امرىء القيس واسرته معرفة لا باس بها ، ونعرف كذلك منبته ونشاته وتاريخ وفاته بصورة تقريبية »(٨٢) .

ويتعقب البصير الدكتور طه حسين في آرائه في شعراء المطولات ففي زهير يقول : « ان اهمال زهير وادبه بحجة انتحال الشعر بعد ظهور الاسلام وحمله على الجاهليين ، خسارة لا تعوض »(٨٤) .

وفي « عمرو بن كلثوم » و «الحارث بن حلزة» يقول : « ... ان منابع التاريخ في القرون الوسطى تنص على حقيقة وجود عمرو بن كلثوم .. والحارث ابن حلزة اليشكري »(٨٥) .

ويذكر الكتب التي تؤيد ذلك كالكامل والاغاني وابن سلام في « طبقات الشعراء » ... اذن فلا سبيل الى انكار وجودهما ولا الى الشك بشاعريتهما . اما الدكتور طه حسين فيشك في معلقة ابن كلثوم معتمدا على قول الاصمعي :

ان مطلع هذه القصيدة هو :

« قفي قبل التفرق يا ظعينا »(٨٦)

لكن هذا لا يعني اكثر من ان الاصمعي روى هذه القصيدة عن اعرابي لا يرويها كلها ... ويظن زميلنا الاستاذ طه حسين ان سلاسة اللفظ في معلقة ابن كلثوم دليل على افتعالها بعد الاسلام . لكن لغة القرآن لا تقل سهولة ودماثة عن لغة هذه المعلقة ولم يفصل بينهما قرن »(٨٧) ويختتم رايه قائلا : « وقصارى القول ان ابن كلثوم وابن حلزة اليشكري شاعران حقيقيان عاشا في القرن السادس للميلاد ولعبا ادوارا خطيرة على مسرح الادب والسياسة في البادية ، واضافا الى كنوز ادابها ـ بمطولتيهما ـ ثروة خطيرة »(٨٨) .

وكاننا يطيل التامل والبحث لدى كل راى يعلنه الدكتور طه حسين فيعطى خلاصة ما توصل اليه بعد الجد الطويل والصبر الكثير وحسبنا انه لا يهادن في الحقيقة(٨٩) . لما لبحوثه من منهج ورأى .

لنستمع اليه يتحدث عن حماد الراوية وحقيقته وعن الباحثين الذين اطمانوا الى نحل المطولات ونسبوها اليه :

« ان حمادا اعجز بكثير من ان يختلق المعلقات وان ينتحلها اشخاصا خياليين او حقيقيين ؛ بل ان اختلاقها على يد شاعر واحد مهما سمت شاعريته امر غير ممكن نظرا لما تمتاز به كل واحدة منهن ـ المعلقات ـ من مميزات ومشخصات لا يمكن ان تتوفر في شاعر واحد »(٩٠) . لم يقف البصير من العصر الجاهلي وحده هذا الموقف مع الدكتور طه حسين ، وانما مضى يتابعه في العصور التالية من اسلامية واموية وعباسية . وقد شك في اكثر آرائه وادى هذا الشك الى نتائج قررها هو . وللبصير في ادب العصر الاموي آراء اقامها على التامل في المادة والتثبت في البحث ونراه يقرر ان النثر الفني يبتدىء بالقرآن الكريم ، ويرفض خلو القرآن من النثر خلوه من الشعر . كما انه شك في شهرة عبدالحميد الكاتب لانها لم تقم على اساس صحيح « وان الكتابة لم تبدا به وان زعامة الانشاء في عصر القرآن(٩١) ان كانت لاحد فانما هي للامام علي ثم لعمر بن الخطاب من بعده » وعندما يتحدث عن النثر الفني يعرفه بانه « الكلام البليغ غير المنظوم الذي تصور به الاشياء او الاشخاص او الحوادث تصويرا مؤثرا »(٩٢) . ثم يحدد تاريخ النثر الفني في الاسلام بانه : « يبتدىء دون ادنى ريب بالقرآن ، سنقول ولكن القرآن

---

(٨٢) نفس المصدر ص ٢٨ .
(٨٤) المصدر نفسه ص ٤٧ .
(٨٥) المصدر نفسه ص ٥٠ .
(٨٦) هذه مطلع قصيدة ، و « الظعن » الرحيل ، والظعينة المراة في الهودج ، ثم اطلقت على كل امراة .
(٨٧) المصدر السابق ص ٥٩ .
(٨٨) المصدر نفسه ص ٧٠ .
(٨٩) تراجع مجلة الاديب البيروتية « مؤلفات البصير » لعلي جواد الطاهر جـ ١ سنة ١٩٦٨ .
(٩٠) بعث الشعر الجاهلي ص ٩٨ .
(٩١) يقصد بـ « عصر القرآن » الفترة التي تبدا بقيام الدعوة الاسلامية وتنتهي بزوال بني امية وقد اطلق البصير هذا الاسم لغلبة روح القرآن ولغته على خطب خطبائها ورسائل كتابها .
(٩٢) انظر عصر القرآن ص ٥٧ .

سفر ديني قبل كل شيء وقد ذهب فريق من المستشرقين والنقاد العرب منهم الاستاذ « وليم مارسيه » و « الدكتور طه حسين » الى انه خال من النثر خلوه من الشعر .. ولكني لا أستطيع ان اتصور كيف يقدم ناقد عربي او مستعرب يقرأ القرآن ويفهمه ويتذوقه على القول بخلوه من النثر الفني خلوا تاما »(٩٢) . يذكر البصير ادلته وحججه في هذا الباب بمادة ممحصة ونصوص مختارة تزخر بالراي الصائب والحجة الدامغة يقول : « اذا تصفحت القرآن وجدته حافلا بأنواع النثر فاما النثر المرسل : فان القرآن يرجع اليه كلما راى ان التزام السجع لا يتفق واداء المعنى بصورة سليمة. ومن امثلة ذلك قوله في « سورة يوسف » المكية التي يغلب عليها السجع « ... يا صاحبي السجن ارباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، .. ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله امران لا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون ... » ومثل هذا في القرآن كثير ..

اما الازدواج :

فهو شائع في التنزيل العزيز ولا سيما في الموضوعات التي تتعلق بالوعظ والارشاد والتحذير من بطش الله وعقابه والتبشير بما عنده من حسن المآب . خذ مثلا على ذلك قوله في سورة الطارق المكية :

« بسم الله الرحمن الرحيم : والسماء والطارق وما ادراك ما الطارق . النجم الثاقب . ان كل نفس لما عليها حافظ ، فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » .

وقوله تعالى في سورة البلد المكية :

« بسم الله الرحمن الرحيم : ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . اولئك اصحاب الميمنة . والذين كفروا بآياتنا هم اصحاب المشئمة » .

وقوله في سورة الغاشية المكية :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هل اتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية » فواضح ان فواصل هذه الآيات تتفق وزنا ولا تتحد رويا .

(٩٢) عصر القرآن ص ٨ بغداد سنة ١٩٤٧ .

فهي من النثر المزدوج .. على ان الطابع الذي يمتاز به القرآن انما هو السجع الذي افتن فيه افتنانا واستحدث منه ضروبا وانواعا(٩٤) . ويسهب البصير في ذكر الامثلة لانواع النثر الفني المثبتة في القرآن الكريم(٩٥) مقررا « اذا كان ما زعمت وجوده في القرآن الكريم من عناصر البلاغة، كسلامة اللفظ وانسجام التعبير والاشتمال على المحسنات البيانية في غير تكلف موجودا فيه حقا ... فليس من المجازفة في شيء ان نقرر أن القرآن سفر منثور له قسطه من الحيوية والجمال وحظه من البراعة والقوة »(٩٦) . وبعد هذا ينتقل الى رسائل الخلفاء الراشدين وولاتهم وقوادهم مستغربا من المؤرخين اهمالها والبحث عن عناصرها الفنية ، يقول : « والغريب ان اكثر مؤرخي ادابنا لا يجهلون ان لنوابغ الصدر الأول واعلامه كالراشدين وكثير من ولاتهم وقوادهم رسائل بليغة خليقة بالعناية والدرس الا انهم يكتفون بالاشارة اليها ولا يكلفون انفسهم مشقة البحث عنها والعناية بها »(٩٧) . وينحى كاتبنا باللائمة على الدكتور طه حسين قائلا : « ان ثلة منهم في مقدمتهم الدكتور طه حسين يروون أن هذه الرسائل مكتوبة بلغة التخاطب ، وانها غير خليقة بالدرس »(٩٨) . ويستشهد البصير بما ذكره « طه حسين » بهذا الشان في كتابه « من حديث الشعر والنثر » حيث قال : « ... ولكن هذه الرسائل التي كانت تكتب ، مختصرة لا يقصد منها الا مجرد الاداء في غير تفنن أو اشارة لجمال فني خاص »(٩٩) .

ويرد البصير على هذا بقوله : « ... لا نزاع في ان العهود والوصايا ... من افضل ما كتب في اللغة العربية ليس فقط في عصر القرآن بل في كل عصر من العصور الاسلامية ، فليس من شك في انها من اسمى مثل البلاغة العالية التي تستمد روعتها من سمو الفكر وصفاء الشعور وفصاحة الالفاظ وجمال الاداء(١٠٠) . وهكذا يمضي البصير متعقبا آراء الدكتور طه حسين مبينا رايه فيها ؛ ومع كل هذا فكاتبنا معجب به وبمؤلفاته القيمة

(٩٤) نفس المصدر ص ٩ ـ ١٠ .
(٩٥) يراجع نفس المصدر ص ٩ ـ ٢٢ .
(٩٦) المصدر السابق ص ٢١ .
(٩٧) و (٩٨) المصدر نفسه ص ٤١ .
(٩٩) طه حسين « من حديث الشعر والنثر » ص ٢٣ ط ١ سنة ١٩٢٦ .
(١٠٠) عصر القرآن ص ٩٤ .

رغم اختلاف آرائهما في الامور الادبية يقول : « لي مآخذ على الاستاذ طه حسين ذكرت قسما منها في مؤلفاتي ، واني اعجب بالدكتور طه حسين وبمؤلفاته ، واحب مؤلف الى نفسي كتاب « ذكرى ابي العلاء » وكتاب « الايام »(١٠١) .

اما رايه في الشعراء القدامى :

فقد اعجب بأكثرهم ولا سيما المتنبي الذي حذا حذوه في اكثر اشعاره يقول : « الشاعر الذي كنت اعجب به قبل خمسين سنة واعيش معه في ديباجته القوية وخياله الخصب والذي ما زلت اعجب به وسأظل اعجب به حتى نهاية حياتي هو المتنبي ؛ واما البحتري وابو تمام ؛ وابو العلاء فلهم في نفسي اعجاب جد كبير »(١٠٢) . اما رايه في الشعراء المعاصرين فانه لا يرى راي الذين يقدمون « شوقي » ويؤمرونه على معاصريه انما يرى ان « حافظ ابراهيم » اولى بالزعامة من غيره . اما موقفه من الشعر الحر فالبصير يرى ان « الشعر الحر رد فعل طبيعي للمحافظة الشديدة العنيدة التي سرنا عليها ... والشعر الحر ما زال في بداية الطريق ، وسياتي اليوم الذي يبلغ فيه الشعر الحر مكانته المرجوة اللائقة ، كما سيقف ويثبت على قوالب ومقاييس ؛ ان اكثر الشعراء المحدثين بحاجة الى ثقافة لغوية ودراسة عميقة وان اكثرهم يستعجل خطاه الى المطبعة والنشر »(١٠٣) . والواقع ان البصير لا يتحدث عن شاعر او كاتب الا اذا كان له من الاصالة والقوة او التاثير في سير الحركة الادبية ما يجعله اهلا للتحدث عنه(١٠٤) .

اما اذا تحدث عن الثورة « ١٩٢٠م » وعن دور الادب فيها نثرا وشعرا نجده كاتبا وشاعرا يؤرخ لها ويصور واقعها يقول : « ان علاقة الادب بثورة العشرين (١٩٢٠م) اقوى علاقة يتصورها العقل ، وقد دعا اليها وبشّر بها وهي حلم يراود نفوس الاحرار ، فلما استحالت حقيقة صارخة وقف الى جانبها يؤيدها ويمجدها ويدعو الناس للمشاركة فيها والالتفاف حول رايتها وعندما اخمدها المحتلون بالحراب والمدافع وقف على مصرعها يبكيها احر بكاء ؛ ويرثيها اصدق رثاء ، ولن نجد في تاريخ اية امة علاقة كهذه العلاقة بين الادب وبين النضال السياسي »(١٠٥) .

ولعل ديوانه « البركان » يمثل الثورة اصدق تمثيل فقد اودعه شعره الثوري المصور لبطولات الشعب العراقي في ثورة العشرين ثم الاجهاض المريع في خاتمة المطاف ، ويكفينا للدلالة على معرفة سمات هذا الديوان وآرائه الثورية انه اهداه الى « الذين كتبوا صك استقلال العراق بدمائهم »(١٠٦) . والقارىء لا محالة سيعجب بالبصير شاعرا وبقصائده التي كان لها دوي عظيم واثر كبير في تحريك الجماهير . وقد رتب « البركان » ترتيبا زمنيا احتوى على قصائد كل دور من ادوار الجهاد . وبهذا يمكن عدّه نوعا من المذكرات ضمت خواطر متسلسلة تتعلق بحوادث متعاقبة بعضها سياسي وبعضها حربي وبعضها ادبي(١٠٧) . والواقع ان قصائد الديوان صورت التجارب الشعورية الصادقة الامينة لحقيقة الثورة واهدافها وقدسية الدوافع التي اشعلت نارها ولآمال الشعب العراقي خاصة والشعب العربي عامة ، وكانت تلك القصائد بمثابة الحافز والموقظ لابناء العرب قاطبة يقول :

« قمت بواجبي الوطني ، الذي كان يتطلب مني حينذاك فعملت ما وسعني العمل على تلقين ابناء بلادي وتعريفهم بما لهم من حقوق طبيعية في السيادة والحرية والاستقلال .. والتأكيد على المطالبة بتلك الحقوق وبذل كل جهد ممكن في سبيل الوصول اليها ولو كان ذلك بحد السيف »(١٠٨) . والجدير بالملاحظة ان شعر البصير كان اقوى في التاثير لدى الجماهير وتحريكها من النثر فقد كان يتفعل بالشعر انفعالا عجيبا كما يقول البصير(١٠٩) وهو جانب يعود الى طبيعة الشعب العراقي .

ووطنية البصير في شعره هي نوع من التعبد والفناء في المحبوب :

---

(١٠١) جريدة الشعب البغدادية العدد (٤١١٥) سنة ١٩٥٨ مقال بعنوان « مهدي البصير » .

(١٠٢) مجلة الرياض العدد (١٨) سنة ١٩٦١ « الشاعر البصير » .

(١٠٣) جريدة الشعب البغدادية العدد (٤١١٥) سنة ١٩٥٨ مقال بعنوان « مهدي البصير » .

(١٠٤) تراجع مجلة المعلم الجديد العدد (٦) ص ٢١٤ سنة ١٩٤٦م .

(١٠٥) جريدة الجمهورية البغدادية العدد (٤٨٥) سنة ١٩٦٩م .

(١٠٦) مقدمة البركان .

(١٠٧) تراجع مجلة الاديب البيروتية ص ٥ .

(١٠٨) جريدة الجمهورية البغدادية العدد (٤٨٥) سنة ١٩٦٩م .

(١٠٩) تراجع جريدة المواطن البغدادية العدد (١٧٢) سنة ١٩٦٨م .

وطنـــي والحـــق يؤيده
اصفيـــه الحب واعضـــده
اهـــواه ولـــولا مبدعـــه
لجهـــرت بأني اعبـــده
مهـد التشـــريع ومنبتـــه
ومنـــار العـــلم وفرقـــده

* *

ولـــوف نهب لنصرتـــه
فنحـــرره ونجـــدده
ونعيـــد اليـــه كرامتـــه
وبحـــد السيف نحـــدده
سنهـــز الشعب ونوقظـــه
ولدفـــع الظلـــم نوحـــده
ونحطـــم قيـــد مذلتـــه
وبنشـــر العـــدل نقيـــده
اشقته سياســة مضطهـــد
ستقلص عنـــه فتـــعده(١١٠)

وكانت لتلك القصائد اثرها الفعال في تحريك الناس لانهـــا كانت تعبيرا عن امانيهم واعرابا عن آلامهم ، وراوا فيها مظهرا من مظاهر القوة والعزة، لهذا كانت لا تنفصل عن تاريخ العراق بـــل هي صفحات نيرات منه .

ومن أشهر تلك القصائد وأسيرها وابقاها على الالســن « لبيك أيها الوطن » :

ان ضـــاق يا وطني عليّ فضـــاكا
فلتتســـع بي للامـــام خطـــاكا
بك همت بل بالموت دونك في الوغى
روحي فـــداك متى اكون فـــداكا

* *

اتراك تضمن لي كرامـــة مصـــرع
فيـــه ابيت مجـــاورا صـــرعاكا
هب لي بربك موتـــة تختـــارها
يا موطني اولست مـــن ابنـــاكا

* *

كذبتك أقطاب السياسة عهـــدها
فلتضمنن لك الحيـــاة ضـــياكا
نفضت مطامعهـــم صداقتك التي
من اجلهـــا عقـــدت فهم اعداكا
افيطلبون لك « الوصايـــة » ضلة
ما كان اقصـــرهم وما احجاكا(١١١)

(١١٠) البركان ص ٦٦ .
(١١١) المصدر السابق ص ٥١ .

والمتمعن في قصائد البركان يجد الشاعـــر هائما بوطنه هياما بعيدا ، حتى لكأنما اتخذ له في قلبه معبدا يقدم له تراتيل الشعر ، حتى يستثير امته وحتى يوقظها من رقادها الطويل لتفتح عينيها على المحتل الاثيم وقد داس بقدميـــه امجادها وامتهن كرامتها — وطبيعي ان يحس المحتـــل في اشعاره خطرا وبيلا وان تقض مضجعه وان تدفعه الى القبض عليه والزج به في السجون فاذا هـــو يقول :

قالوا سجنت لراى كنت تعلنـــه
فاكتم وحـــبك ما لاقيت من غصص
فقلت هيهـــات سجني لا يغيرني
ان الهزار ليشدو وهو في القفص(١١٢)

وهو القائل :

ملء السجون مصائب وشجـــون
فالله جارك ايهـــا المســـجون
صبرا نزيل السجـــن انك ناهض
لتعز شعبـــك والخطوب تهـــون
ماذا يضـــرك حين توقظ امـــة
من قاع سجن انت فيه رهين(١١٣)

وقـــد خشيت السلطات المحتلـــة شاعرنا فسجنته اكثر من مرة وكانت اخشى ما تخشـــاه ايقاظه الحس القومي لابناء قومه . وهيامه بقومه لم يكن يقل عن هيامه بأمته :

اغـــار عليـــك يا وطني هيـــاما
كمـــا غـــار المحب على حبيب
ولـــم انظـــر الى اعـــدائك الا
كمـــا نظر المشوق الى رقيب(١١٤)

ثم اسمعه يقول :

لا يصلح الشرق حتى يفلح الغرب
لانـــه كرة فيهـــا هـــم القطب
ان سالوا فحياة الشـــرق هادئـــة
او حاربوا فهناك الويل والحـــرب

ودائما يدعو العـــرب كي ينفضوا عنهم ذل الاحتلال وكي يثوروا لكرامتهم المهـــدرة ، وكي يطعنوا المغتصب طعنات نجلاء وهذا ما يزخر بـــه ديوانه « البركان » .

وليس غريبا ان يلقب البصير بشاعر ثـــورة

(١١٢) نفس المصدر ص ٧٩ .
(١١٣) نفس المصدر ص ٧٨ .
(١١٤) نفس المصدر ص ٦٦ .

العشرين وان يقرن اسمه بها ، اذ كان موقد نارها ومذكي حماسة ابنائها ولسانها الناطق وقلبها النابض .

ولن يصان لليث الغاب مربضه
من الذئاب لو ان الليث لم يثب

وينتهي الى القول :

لا حق للمرء في مجد يحاوله
ان شح بالنفس او ان ضن بالنشب(١١٥)

اما وصفه لثوار (١٩٢٠م) فهو حافل بالمعاني الوطنية والقومية ؛ ومن وصفه لجحافل الثوار ، وهي تسيل من كل جانب تريد الثأر للوطن المهيض .

قال :

فاض الفرات جحافلا
وجرى ديالى بالمقانب
اهلا بأبطال البلاد
حماتها عند النوائب
ردّوا لنا الحق الذي
ما ان نزال به نطالب

وفيها يتحدث كثيرا عن مكر الانكليز ودسهم بين افراد الامة وما يكيدون به الشعب كيدا خبيثا ، محاولين دائما ان يفرقوا بين افراده وان يحدثوا بينهم شقة واسعة من الخلاف ليشغل بعضهم ببعض غير ان ابناء الوطن كانوا يقظين لمحاولات المحتلين الآثمين ، فلم يمكنوهم من مأربهم الخبيثة ؛ ومضوا يسددون اليهم رماحهم وسيوفهم ، يقول :

ظنوا العراق فريسة
وقد التقت فيها المخالب
فتسلحوا لرجاله
بمكائد الخصم الموارب
وسعوا لشقّ صفوفه
مكرا فكان السعي خائب
كانوا كناكصة الذئاب
يشلها الأسد المغاضب
وتراجعوا من بين مقتول
وماسور وهارب(١١٦)

وظل البصير يغذي الثورة بنتاجه وينفخ فيها من روحه ويتابعها خطوة خطوة يشجعها ويثويها الى ان سقطت بأيدي المحتلين فوقف عليها يرثيها ويندبها ويحث الناس على احتمال المصاعب والمكاره فيقول :

بكيت لما انتاب البلاد فراعها
من الثكل لما فات احرارها النصر
اما كنت تدري ان ذلك واقع
اذا فشلت في قومك الوثبة البكر
فكفكف دموعا لست ممن يزيلها
لتطفىء اشجانا يضيق بها الصدر
وعد بجميل الصبر انك اهله
فما لك في شكوى تبوح بها عذر
وان انت لم تملك دموعك صابرا
فما انت عندي ذلك الباسل الحر(١١٧)

وينظر في فلول المعركة فلا يروعه الا ان بعض الناس ينسون الثورة وشهداءها ويتنكرون لاهدافها ويزينون للناس النكوص والزيغ ، فيرثي لهم وللاخوان ؛ ويعتصم بايمانه بربه ووطنه وعقيدته(١١٨) ، قائلا :

قالوا الا تنيذها غاية
ما لك من اخطارها واق
فقلت ان ابطلت رأيي فمن
يضمن لي صحة اخلاقي(١١٩)

وكان رثاؤه للثورة مليئا بالاحزان والآلام :

بكيت لاسقي زهرتي ماء مقلتي
عشية منها صوّح الورق النضر
بدمعتي الحرّى أعيد حياتها
اذا ما عدتها الشمس او خافها القطر(١٢٠)

وما احسن مواساته حين يقول :

هوّن عليك فلا تفزعك ان طرقت
دهم الخطوب وان جلّ الذي دهما
فما استطالت الى المجد الاثيل يد
لا تنتضي السيف او لا تحمل العلما(١٢١)

ومن حكمه السياسية الرائعة قوله في الوحدة بين افراد الشعب التي كانت مطمح الرجال الاحرار في الامة :

---

(١١٥) المصدر السابق ص ٦٣ .
(١١٦) نفس المصدر ص ٥٩ .
(١١٧) نفس المصدر ص ٧٣ .
(١١٨) تراجع جريدة صوت الاحرار العدد (١١٢٤) سنة ١٩٦٢ .
(١١٩) البركان ص ٧٥ .
(١٢٠) المصدر نفسه ص ٧٢ .
(١٢١) نفس المصدر ص ٧٢ .

لولا اجتماع البحـــر من امواهـه
لم تجـــن لؤلؤه الثمين نضـــيدا
فالشعب ان لم يتحـــد افـــراده
لن يستقل ولن يعيش سعيدا(١٢٢)

ولعل هتافه قبل رحيله عن بغداد ونفيـــه الى جزيرة هنجام خير ما يصور ثورته على العدو الغاشم الذي اقتحم عاصمة وطنـــه وانزل بهـا من الهوان ما تقشعر له الابدان ، وانه ليستثيرها لتقف على قدميها امامه ، وتسدد الى صـــدره ووجهه لطمات قوية ، حيث يقول :

هبي الى المجد يا بغداد ناهضـــة
وليتّبـــع سنن الابـــاء ابنـــاك
وانت انت اذا مـــا زاغ منقلـب
فواصلي في طريق المجد مراك(١٢٣)

وبينما نراه على هذا الحال نراه كذلك يكثر من النظم في فنون شعرية اخرى .

وللبصير اشعار كثيرة وراء شعره السياسي والوطني والقومي الملتهب حرارة وحماسة ، وهو فيها يحاكي القدماء في اغراضهم الشعرية المديدة، وقد اقتدى ببشار في عنايته بالوصف الحـــي من مثل قوله : مجاريا بشارا في غزله :

ولقد هممت بان اقبـــل ثغـرها
لمـــا التقينـــا للوداع صباحـــا
واردت ثمـــة ان اضم قوامهـــا
واشـــم من وجناتهـــا تفاحـــا
ورغبت ان افضي لهـا بهواجسي
تركت فؤادي موجعـــا ملتاحـــا
لكـن ذهلت فلـم انـل ما اشتهي
منها وكان جميـــع ذاك مناحـــا
حتى افترقنـــا صامتين كأننـــا
لا نستطيع لشجونا افصاحـــا(١٢٤)

وحين انصرف عن الشعر بعد الاستقـــلال اتجه الى التأليف وعكف عليه ، ولـه قصيدة هي آخر قصائده يتحدث فيها عن هجرانـــه للشعر واكبابه على الكتب والتصنيف يقول موجها حديثه الى مواطنيه مبينا لهم انه ترك دنياهم الشعرية الى دنيا المؤلفات المصنفات حيث يقول :

خـذوا شمّ القصـــور مزخرفات
رحـــاب الظل تزدهـــر ازدهارا
خذوا خضـــر الموائد شائقـــات
تلـــذ لكم شـــرابا او ثمـــارا
خذوا هذا فمـــا انا فيـــه صب
يحن اليـــه ســـرا او جهـــارا
صحبتكم فلـم احمـــد سجـــايا
احطت بهن درســـا واختبـــارا
لـذاك هجـــرتكم وصحبت كتبي
فلذت صحبـــة وحلت مزارا(١٢٥)

ولعل في كل ما اسلفنا ما يصور مكانة البصير في حياة الامة العربية وثوراتها الدامية على قـوى الشر والعدوان ، فقد كان دائما في مقدمة الثائرين، مسددا الى الاعداء الغاشمين كل ما يستطيع من خطبة او قصيدة او مقالة حماسية ملتهبـــة وان مقالاته وقصائده وخطبه لتعد وثائق خطـــيرة في تاريخ العراق المعاصر اذ واكبت كل احداثه وكل وقائعه ، مصورة جهاده .. ونضاله وامانيه وآماله في الحرية والاستقلال والحياة الكريمة .

٤

اسلوبه ولغته

الواقع ان دراسة لغة البصير واسلوبه ليست يسيرة سهلة لأنه متعدد الجوانب ، متنـوع الانتاج : فهو خطيب وله في الخطابـة اسلوبـه الخاص . وهو مؤرخ وله في سرد وقائع التاريـخ واحداثه اسلوبه الخاص(١٢٦) . وهو ناقـد أدبي وله في هذا الميدان اسلوبه الذي يتميز بـــه بين سائر النقاد ، ومع ذلك سنحاول ان نتلمس ابرز خصائص لغته واسلوبه بوجه عام . وعندنا انـه فصيح اللفظ متين السبك تنم لغته على شخصيته وهي لغة مانوسة محببة ليس فيها شيء من التقعر والغرابة ، يغلب عليها الاسترسال وتوخي الوصول الى المعنى المقصود من اقصر الطرق وايسرها حتى تكون في متناول فهم القارىء مهما اختلفت ثقافته. ولعل اهم ميزة في مقالاته سواء اكانت سياسية ام ادبية ، اجتماعية ام صحفية هي ترصيعـه تلك المقالات على الاكثر ببيت شعر او بيتين من نظمه او نظم غيره من اروع ما قال في الشجـــاعة او الحماسة او الحكمة مما يقطر قوة وشجاعة حسب مقتضى الحال ومما يكسب تلك المقالات تأثيرا قويا في نفس قارئها وهو في كل ذلك بعيد عن التكلف

(١٢٢) نفس المصدر ص ٩٨ .
(١٢٣) نفس المصدر ص ٩٦ .
(١٢٤) ادهم الجندي « اعلام الادب والفن » ص ٢١٦ .
(١٢٥) جريدة المنار البغدادية العدد « ١١١٣ » سنة ١٩٦٥م .
(١٢٦) ان تاريخ القضية العراقية يعطينا صورة واضحـة لدراسة الحوادث التاريخية .

واضح المقاصد والاغراض شديد الزهد في الزخارف البيانية . يتحدث اليك عما يجول في ذهنه حديث من يهمه ان تستمع اليه وتفهمه ، وتشاركه في رايه دون ان يفرض عليك وجهة نظره بشكل من الاشكال . وكل ما يطمح اليه هو ان يقنعك بسلامة منطقه وقوة برهانه ، فاذا تحدث اليك عن النثر الفني في القرآن مثلا . بدا بتعريفه قائلا انه : « الكلام البليغ غير المنظوم الذي تصور به الاشياء او الاشخاص او الحوادث تصويرا مؤثرا »(١٢٧) .

اما اذا تحدث عن القرآن فانه يروى ذلك من الوان نثره ما يحملك على الاقتناع بانه احفل كتاب عربي ببدائع النثر الفني وروائعه . واذا تحدث اليك عن الخطابة في القرن الاول للهجرة واثر القرآن فيها روى لك خطبة لابي بكر واخرى لعمر ابن الخطاب وخطبا للامام علي مقتبسة من العقد الفريد لا من نهج البلاغة . يقول : « انا لا اعتمد هذا الكتاب في اقتطاف المثل التي اختارها من خطب الامام علي ، هذا مع العلم باني اصحح نسبة نهج البلاغة اليه اجمالا . واقول اجمالا لانه ليس من المتعذر ان يغفل الشريف الرضي عن قبول خطبة او رسالة او كلمة مدسوسة على جده .. كما انه ليس من المتعذر ان يدس احد انتساخ جملة او اكثر في ثنايا هذا السفر »(١٢٨) . ويذكر لنا ما يجمع بين تلك الخطب وبين القرآن من الروابط الفنية . ثم يشفع ذلك بمثل من خطب الامويين والزبيريين والخوارج مبينا ما يجمع بين هذه المثل وبين القرآن من معالم الانشاء وملامحه ومؤكدا وجهة نظره القائلة : ان الخطابة كانت عنصرا خطيرا من عناصر الادب العربي في القرن الاول للهجرة . وان القرآن عظيم الاثر في هذا العنصر الى ابعد الحدود »(١٢٩) . واذا تحدث اليك عن صناعة الانشاء في القرن الاول للهجرة ، روى لك طائفة من رسائل عمر بن الخطاب وطائفة من رسائل الامام علي منبها الى ما يجمع بين هذه الكتب والقرآن من صفات وسمات(١٣٠) . اما اذا تحدث عن عبدالحميد بن يحيى الكاتب ، الذي اعتبره الجميع شيخ صناعة الانشاء في القرن الاول للهجرة ، فانه يصفه برداءة اللغة وثقل الاسلوب ، والركون الى المجمة والميل الشديد الى التكرار بلا مسوغ . يقول في وصف فنه : « وعندي انه مطيل الى درجة الاملال ، يطرق الموضوع ويبدي رايه فيه ، ثم يعود اليه في الرسالة نفسها فيكرر ما قاله تكرارا يدعو الى السأم ولا يفضي الى فائدة مطلقا. وهو شديد التكلف ، كثير التمحل ، يخونه الطبع ولا تواتيه الصنعة في كثير من الاحيان »(١٣١) .

ويبرهن الجبير على ذلك برسالته الكبرى . ليدلل على ضعف اسلوبه وعدم ثبات قدمه في اللغة التي يكتب فيها(١٣٢) يقول : ان هذه الرسالة التي هي : « من اطول رسائله واجمعها لاحاسن كلامه تدل دلالة قاطعة ... على جفاف الطبع وثقل الاسلوب ورداءة اللغة »(١٣٣) . ويؤيد حججه بالأمثلة الكثيرة التي يقتطفها من هذه الرسالة واصفا اسلوبها بانه « اسلوب رجل اجنبي لم تثبت قدمه بعد في اللغة التي يكتب فيها ، يحفظ الالفاظ ولكنه لا يحسن استعمالها كما انه لا يحسن تاليفها ويقلد فحول الخطباء او الكتاب ولكنه لا يحسن تقليدهم .. وليس في هذا ما يبعث على الاستغراب فان الرجل من اوائل المستعربين ، ولم يتعلم اللغة لانه لم يدرك سر جمالها ، ولم يتذوق طرائف آدابها وانما تعلمها طلبا للرزق »(١٣٤) .

وقد نظر البصير فيما نسب الى عبدالحميد من آثار « كرسالة الكتاب » و « رسالة كتبها الى وال متمرد » فرفضها لانها لا تحمل طابعه ولا تمثل اسلوبه قال لا شك في : « انها منحولة وضمها احد كتاب الفرس في صدر الدولة العباسية ونحلها عبدالحميد ، وذلك لانها تحمل طابعا غير طابعه وتمثل اسلوبا غير اسلوبه »(١٣٥) اذ هذه الرسائل وخاصة رسالة الكتاب ، في رايه ، تختلف عن رسالة ولي العهد من حيث اللغة والاسلوب ، فرسالة « الكتّاب » تمثل اسلوب رجل « حسن الالمام باللغة مطبوع على التكلم بها قد ورثها ونشا في بيئة تتكلمها »(١٣٦) وهي مسجوعة مع ان طابع اسلوب عبدالحميد الترسل لا السجع كما يقول . وقد مضى يزعم ان شهرة عبدالحميد مردها الى المركز السياسي الذي شغله في خلافة « مروان بن

(١٢٧) عصر القرآن ص ٧ .
(١٢٨) المصدر نفسه ص ٢٧ ولتفصيل ذلك تراجع ص ٢٧ ـ ٣٢ .
(١٢٩) انظر المصدر نفسه ص ٣٤ ـ ٣٧ .
(١٣٠) المصدر نفسه .
(١٣١) المصدر نفسه ص ٥٠ .
(١٣٢) يراجع المصدر السابق ص ٥٢ .
(١٣٣) المصدر نفسه ص ٥٣ .
(١٣٤) و (١٣٥) المصدر نفسه ص ٥٤ .
(١٣٦) المصدر نفسه ص ٥٤ .

محمد » لا الى روعته البيانية الحقيقية ؛ وان الخليق بكل اعجاب في الانشاء والنثر الفني انما هو علي بن ابي طالب(١٣٧) . وينهي البصير رايه بقوله : « فهل من الصواب ان نتخذ من عبد الحميد اماما لصناعة الانشاء في عصر من ارقى عصور الادب العربي واجلها شانا ؟ السنا نظلم الادب في هذا ظلما فاحشا ونسيء الى العلم اساءة لا تغتفر »(١٣٨) .

ومن اهم ما يمتاز به اسلوبه عمق التفكير واصالة التعبير . يقف ازاء كل صغيرة وكبيرة يريد ان يعرض لها بالبحث فلا يقول كلمته فيها الا بعد ان ينقب ويبحث في بطون الكتب ثم يقارن ويقابل حتى يتحقق انه على صواب ؛ وقد ادى به هذا الى انكار الكثير من اخبار الشعراء والكتاب التي تحفل بها كتب الادب القديم . ولك ان تتصفح كتبه لتتبين ما فيها من نفي واثبات في الكلام عن كل كاتب تناوله بالبحث . وكان عندما يؤمن بضرورة الكتابة في امر من الامور يجمع في ذهنه الاشباه والنظائر ويناقش ويتامل ، ويقلب ما قرا وما سمع على وجوهه متانيا متريثا ، يقول صاحب شعراء الحلة : « شاهدت من ذكائه واتقاد خاطره ما ذكرني بشاعر المعرة واعجبني انه ما يملى عليه شيء من الشعر والنثر الا وعلق عليه وحفظه سريعا وثبت في ذهنه »(١٣٩) . وهو في تامله الطويل يسبر غور ما بين يديه من روايات فاذا بدا في رواية تركها واذا احس بكذب فضحه ، واذا شام تناقضا دل عليه . كل ذلك بالرجوع الى امهات المعاجم والمصنفات ، مختارا اسلم الآراء واقربها الى الصواب حتى اذا استقامت شؤون البحث واتسعت مجاريه بدا بحثه متجنبا الاطالة مترفعا عن التكرار والاطالة وازنا كلامه وزنا ، ناقدا رايه نقدا في اصالة مع الايجاز(١٤٠) . ومهما يكن من شيء فالبصير برع في جوانب متعددة فهو من القلائل الذين عنوا بالشعر والشعراء والادب والادباء في العصر القديم والحديث ولا نظن غير الذين صاحبوه او تتلمذوا عليه يعرفون هذا معرفة صادقة ، ولكن شهرته كانت محدودة فلم يتهيأ له ما تهيأ لغيره في البلاد العربية الاخرى من الذين لا يدانوه مكانة غير انهم فاقوه شهرة .

(١٣٧) المصدر نفسه ص ٥٧ .
(١٣٨) المصدر نفسه ص ٥٧ .
(١٣٩) علي الخاقاني « شعراء الحلة » ص ٢٤٧ .
(١٤٠) علي جواد الطاهر « مجلة الاديب اللبنانية » عدد نيسان سنة ١٩٦٨ « البصير » .

ويمكن ان يعزى هذا الى ان الكتاب العراقي والكاتب العراقي لم يتهيأ لهما الشيوع خارج العراق . وقد يكون العراق نفسه مسؤولا عن هذا ولكن غير العراق مسؤول ايضا لان المفروض بكليات الآداب في الدول العربية أن تستقصي وان تعرف ما يجد في محيط الادب من جيد ما ينتجه نوابغ الفكر في الوطن العربي زيادة في المعرفة وحبا في الالتحام الادبي والفكري من اجل تعاون يؤدي الى تحقيق ما هو اكمل واتم »(١٤١) . يقول علي جواد الطاهر : « كنا مرة في احدى حلقات الدرس على « المبرد بلاشير » فما كاد يطمئن بالاستاذ الصعب جدا المجلس حتى انبسطت اساريره وافترت شفتاه كمن قام بخاطره شيء عزيز او اراد ان يتحف تلاميذه ، من شتى الاقطار العربية بنتائج كشف خطير ، ثم تكلم ، فكان اطراء على احدث ما وصل اليه من المؤلفات العراقية ، وخص (في الادب العباسي) من مؤلفات البصير بالقسط الاوفر من الثناء(١٤٢) .

والمسالة هنا ليست مسالة البصير قدر ما هي مسالة الحقيقة للتعرف على اهمية بحوثه وسمو شعره وخطورة آرائه التي اولاها العراقيون كل عناية واهتمام . ولقد تتبع البصير الادب العربي كله طيلة الاعوام التي عكف فيها على التدريس في كليات بغداد ومعاهدها « فكان له في الادب الجاهلي شعره ونثره ، والادب الاموي والعباسي ، والموشحات الاندلسية والنثر الفني والشعر الحديث جولات واسعة انتظمتها كتبه المعروفة وهي ، دون شك ، حافلة بالاستقصاء الشامل والتحليل العميق والآراء الصائبة ولعل تشبث البصير بالتدريس الجامعي دون غيره وانقطاعه الى التاليف في ميدان تخصص تلامذته دون غيرهم هو الذي جعل انتشار كتبه في العالم العربي محدودا »(١٤٣) والواقع ان كاتبنا عني بالادب منذ نعومة اظفاره وزاوله مبكرا ثم تهيا له من الدراسة في فرنسا ما زاده علما وفكرا وتجارب ثم تهيا له في التدريس ما زاده تضلعا في المادة وتمحيصا لوجوه الراي ؛ وبذلك قدم كاتبنا للعراق وللادب خدمة وستذكر له الاجيال هذا العمل بكل تقدير وثناء .

(١٤١) تراجع مجلة الاديب البيروتية عدد نيسان سنة ١٩٦٨ .
(١٤٢) المصدر نفسه ص ٣ .
(١٤٣) ناصر الحاني « رجلا عرفت » جريدة الجمهورية العراقية عدد « ٧٨ » سنة ١٩٦٧ .